

كأن القرآن يتنزل من جديد

أ.د خالد فهمى

دار البشير للثقافة والعلوم

كأن القرآن يتنزل من جديد
تأليف خالد فهمي

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
للمزيد من كتبي على
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

1
فاتحة كل خير، وتمام كل نعمة

الإهداء

إلى محمد عبد العزيز أبو النجا
بقية من جيل طاهر

المقدمة

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا
اللهم أذهب به الحزن، وحقّق به الرشد، واملأ صدورنا بنوره
وطهر به عقولنا، وأقِمِ اللهمَّ به حياتنا، وبعد..

فهذا كتاب أو قل إنه محاولة في تدبر الكتاب الحكيم، والتدبر شيء غير التفسير، والتدبر شيء غير التأويل. التدبر طريق لازمة للجميع، للمسلم وغير المسلم على السواء فالقرآن الكريم يدعونا إلى هذا التدبر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد ﷺ 47/ 24) ويقول تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص: 38/29)؛ أي أنه جعل الغاية والعلة من وراء التنزيل الكريم دائرةً مع التدبر، والتعقل، وطلب الفهم.

وقد آمنتُ منذ زمان بعيد بسبب من الاشتغال بدراسة اللغة؛ وبسبب من تأمل فعل الأجيال المتعاقبة من علماء الأمة مع الكتاب الكريم أن الله تعالى أراد من الأمة أن تديم النظر في كتابه العظيم على الدوام، وأن تحاكم المستجدات التي تحزبها، وتهجم عليها على القوانين التي بثها فيه؛ لكي ترى طريق النور، وتهتدي في الظلمات.

إن هذا الكتاب/المحاولة ليس كتابًا في التفسير، وليس في مقدوره أن يدعي ذلك، ولكنه نظر رجل مسلم معاصر، رأى إهمال القوم، ورأى هجران القوم لتدبر آيات الكتاب الحكيم، فحمل نفسه على شيء مما ينعاه على الناس.

وقد جاء هذا الكتاب/المحاولة في ثلاثة فصول، كما يلي:

الأول: مداخل تأسيسية، يناقش الأدلة على ضرورة مراجعة النظر في الكتاب العزيز على ضوء مطالب العصر.

الثاني: تدبر وتأمل في عدد من قصار السور الكريمة، بما هي كليات منهجية تمثل في الحقيقة وعند استثمار تدبرها طريقًا عبقرية للتعاطي مع مشكلات اللحظة الراهنة.

وقد توقف هذا الفصل أمام تأمل لثلاث سور قصيرة هي: سورة القدر، ثم سورة العصر، ثم سورة الكوثر؛ بقصد قراءتها قراءة منهجية تكشف عن مسارات تحتاجها الأمة في أزمتها المعاصرة.

الثالث: يجمع عددًا كبيرًا من الآيات المفردة، تأملتها في سياقات زمنية بعينها، وتدبرتها في سياق حادثات هجمت على واقعنا.

وإنني مدين بالتفكير في إصدار هذه المحاولة إلى الكثيرين من الأصدقاء الذين شجعوني عليها، أذكر منهم الأستاذ حسن صالح، الأستاذ محمد عبد العزيز أبو النجا، والأستاذ طارق سلطان، والأستاذة أمل أحمد، وغيرهم، ممن تفضلوا فامتدحوا بعضًا منها.

وأسأل الله عز وجل أن يتقبله وينفع به،
خالد فهمي

الفصل الأول

في شرعية القول بالتنزل الجديد:

مداخل تأسيسية

أولًا: هل ثمة حاجة إلى تفسير جديد للقرآن الكريم؟!

1 - مدخل: في شرعيّة السؤال:
كان مما تواتر في التاريخ وتناقلته الصحف على امتداد الزمان وصف الذكر الحكيم بأنه كتاب لا يخلق على كثرة الرد، وربما صح أن يفهم في أصول التفسير على هامش هذا الوصف الجامع اتساع حدود مرونة النص الكريم، واكتنازه بما لا يتصور من الدلالة والحكمة معا.
وهو الفهم الذي يؤازره تشجيع نفر من جيل الصحابة، ومن بعدهم أجيال التابعين في مثل القول الذي يقول: «إلّا رجلًا آتاه الله فهمًا في كتابه» وهي مظلة ترقى بأصحاب النظر في كتابه الكريم إلى منطقة مائزة يحوطها التكريم والحفاوة؛ حتى كان ابن حنبل رحمه الله تعالي فيما أخرجه البيهقي في كتابه «مناقب الشافعي» شديد الحفاوة بعمل عقل الإمام الشافعي في كتاب الله تعالى.
وبما يشبه القاعدة في أصول التفسير صكّ ابن عباس رضي الله عنهما قولته على حداثة سنه الذائعة الصيت: «القرآن يفسره الزمان»، وهو ما يعني أن لكل زمان مطالبه التي يوفيها النص حقها مع دوام النظر، والفحص والتفتيش في الذكر الحكيم.
وفي سبيل التمهيد للإجابة عن السؤال الذي تقدم في العنوان بالإيجاب يحسن بنا أن نسوق الملاحظات التالية:
أولًا: ظهرت ملامح العناية بتفسير الذكر الحكيم ابتداء بما جمعه علماء الحديث النبوي الشريف من أحاديث النبي ﷺ التي فسر فيها عددًا من آيات الذكر الحكيم، وهو ما تجلى في أبواب التفسير في كتب الصحاح على ما يظهر مثل له في صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه.
ثانيًا: سرعة ظهور تيار واسع بين الصحابة والتابعين يرعى تفسير القرآن الكريم بغير طريقة رواية الآثار النبوية الكريمة، بمعني أن عددًا من الصحابة والتابعين اجتهدوا في مواجهة الذكر الحكيم بهدف تفسيره وبيانه، ولعل المحاولات المتقدمة على يد ابن عباس رضي الله عنهما فيما عُرف تاريخًا بسؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس التي تأسست على إعادة استثمار الشعر العربي الجاهلي القديم، بما هو أساس ودليل وشاهد على صحة ما فسره الصحابي الجليل، وهو نوع من أنواع التفسير المخالف بدرجة من الدرجات لمدرسة رواية الآثار النبوية في الميدان نفسه.
ولم يكن مجهود ابن عباس رضي الله عنهما فذًا وفريدًا في هذا السياق؛ ذلك أن جهودًا أخرى ظهرت في السياق الزمني نفسه من أمثال جهود أبي الدرداء، وابن مسعود، ومجاهد التفسيرية، مع وجود بوادر قليلة في تأويل القرآن، فيما روي في سياق التدليل على منزلة ابن عباس في باب تفسير القرآن الكريم.
ثالثًا: اتساع تيارات التفسير بالرأي المحمود، وهو اتجاه مخالف لمدرسة المرويّات التفسيرية، التي عُرفت منهجيًا بمدرسة التفسير بالمأثور، وقد اندرج تحت هذه المدرسة التي فسرت القرآن بالرأي مجموعة كبيرة من المدارس الفرعية من مثل
أ - مدرسة التفسير الفقهي (تفاسير الأحكام).
ب - مدرسة التفسير اللغوي والنحوي (تفاسير معاني القرآن).
جـ - مدرسة التفسير البلاغي أو الإعجازي.
د - مدرسة التفسير العلمي (وهي مدرسة قديمة في التراث التفسيري عند المسلمين).

هـ - مدرسة التفسير الحركي (وهو اصطلاح صككناه؛ بما لاحظنا من تأمل تفسير الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله (في ظلال القرآن).

وقبول الأمة بهذه المدارس الفرعية على امتداد تاريخ العناية بتفسير القرآن الكريم دليل حاسم على الإيمان بضرورة تجديد التفسير للذكر الحكيم جيلًا بعد جيل.

رابعًا: الإيمان بأن القرآن هو الكتاب الخاتم يبعث على وجوب تجديد النظر فيه للوفاء بمتطلبات الأمة التي تتجدد من عصر لآخر.

هذه العلامات الأربعة السابقة تشير من طرف غير خفي إلى أن ثمة اتجاهًا ظاهرًا يقرر أن الأمة أجابت على السؤال المتقدم عنوانًا بالإيجاب بما كانت تفجره من مدارس واجتهادات في جانب تفسير الذكر الحكيم.

من التفسير الحركي
إلى التفسير الحضاري

(السير في اتجاه مطالب العصر)
إن فحص بعض جوانب المنجز التفسير للقرآن الكريم في العصر الحديث، في القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي، يقود إلى أن ظهور (في ظلال القرآن) تعيينًا، وبعض اجتهادات أبي الأعلى المودودي، وسعيد النورسي، وفتح الله كولن في (أضواء قرآنية) يمثل ظهورًا لا يخفى لما يمكن أن يسمّى بمدرسة التفسير الحركي، و يقصد به تفسير النص القرآني الكريم بما هو نص كبرى غاياته ضبط حركة الجماعة المسلمة، وهو التعبير المعاصر لغاية الهداية التي تنوع التعبير عنها في الذكر الحكيم، بما هي غاية حاكمة لنزوله، وهو ما يظهر في أمثال قوله تعالى:
- ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة البقرة 2/2)
- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾
(سورة البقرة 2/185)
- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة النحل 102 /16)
- ﴿تلك آيات القرءان وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين﴾ (سورة النمل 27/2) إلى غير ذلك مما هو مبثوث في الذكر الحكيم.
وإذا كان تفسير (في ظلال القرآن) وما ظهر بجواره من محاولات أقل اكتمالًا منه أسهمت في نضج الحركة الإسلامية في العصر الحديث، وما تزال تمارس هذه الجهود التفسيرية الحركية تأثيرها في إلهام أبناء هذه الحركة، ذلك أن طبيعة المرحلة التي تطيف بالأمة المسلمة اليوم في مركزها العربي، وما بدأ يظهر من علامات الوعي والإفاقة في هذا المحيط يفرض علينا معاودة النظر في الكتاب الحكيم من زاوية جديدة توائم متطلبات هذا العصر الجديد، ولعل مطالب هذه اللحظة تفرض افتتاح باب جديد نفسر فيه الذكر الكريم تفسيرًا حضاريًّا بما يرعى مراد الله تعالى في أن تكون الأمة المسلمة قائمة بواجبها في الحياة، بما هي الأمة المهيمنة، والأمة (العليا) التي توظف علوها من خبرتها وإيمانها، ولا سيما في ظل ما يعرف عن معاني القرآن الكريم من أنها متزاحمة وليست متخاصمة أي كثيفة مكتنزة.
إن مفهوم الحضارة بما هو مواجهة الحياة بكل إيجابية، وبكل ما من شأنه قهر التوحش والهمجية والجفوة، مراد ظاهر من مرادات الإسلام، وغاياته العظمي وقد صحَّ أن القرآن الكريم ضد كل ما هو سلبي، والحضارة التي ينشدها هي الحركة في الحياة بإيجابية تامة.
إن الدعوة إلى تفسير القرآن الكريم تفسيرًا حضاريًا مطلب مُلحُّ، ولا سيما أننا مازلنا نعيش أجواء قرون مظلمة أصبح فيها العالم الإسلامي «مهددًا بزوال هويته الحضارية» على حد تعبير «خالص جلبي» في كتابه (النقد الذاتي: ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، طبعة مركز الراية المعرفية، بدمشق 2007م ص 35) وإن كان هذا العالم الإسلامي اليوم أيضًا لم يمت حضاريًا.

في التفسير الحضاري:
محاولة جديدة لتفسير
يراعي مطالب المرحلة

إن تأمل القرآن الكريم منذ نزوله على قلب النبي ﷺ في مكة المكرمة يمكننا من استخراج ركيزتين ظاهرتين لما يمكن أن يسمى بالتفسير الحضاري للقرآن الكريم، يمكن إجمالهما فيما يلي:
أولًا: ركيزة تأمين الحياة الإنسانية.
ثانيًا: ركيزة تنمية الملكات الإنسانية.
وسنحاول في السطور التالية تأمل الذكر الحكيم تعاطيًا مع هاتين الركيزتين بما هما برهانان على حاجة الأمة إلى تفسير القرآن تفسيرًا حضاريًّا.
أولًا: تأمين الحياة الإنسانية - محور من محاور التفسير الحضاري للقرآن الكريم.
إن القرآن المكي وفحصه وتأمله يقود إلى ما يمكن التعبير عنه بقولنا: إن الله تعالى لم يدع أحدًا إلى عبادته إلا بعد أن أحاط جيل الدعوة بعلامات ظاهرة ترعى تأمين حياة الإنسان بدنًا ونفسًا.
وفي هذا السياق أرجو أن نتأمل معًا النقاط التالية:
1 - استقر منذ نزول القرآن المكي محورية رعايته لتأمين الحياة الإنسانية حتى أنه ليصح أن نقرر أن الله تعالى أمر بعبادته بعد كفالة من دعاهم، أليس هو القائل سبحانه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: 3 - 4)
وهو ما يعني أن القرآن المكي يرى أن الأمر بعبادة الله تعالى إنما كان منه بعد استقرار الحياة الإنسانية، واستقرار توفير مادة بقائها، فيما حققه لهم من إجراءات الحصول على الطعام، وجعله عادة مألوفة، ومصحوبة ببعض نوع من المتعة والرفاهية في طريق الحصول عليه من سفر في رحلة شتوية وصيفية.
ولم يكن الحصول على الطعام بما هو مادة بقاء الأبدان معزولًا عن مطالب أمن النفس، وإنما كان مشمولًا بتحقيق أمن النفس، بما فرضه في الزمان (الأشهر الحرم) وبما فرضه في المكان، حيث أحيطت مكة وقريش بمواقيت مكانية من جهاتها جميعًا، لأعماق ممتدة بلغت أحيانًا آلاف الأمتار وأحيطت تشريعيًا بالأمان التام.
2 - وقد استقر كذلك أن ثلثي رحلات الجماعة المسلمة الأولى كان لتحقيق مطالب تأمين الحياة الإنسانية، بمعني أن رحلتين من مجموع ثلاث هجرات هي هجرة الحبشة الأولى والثانية كانتا لطلب الأمان وحفظ أبدان المسلمين الأوائل في مقابل هجرة واحدة كانت لطلب الإيمان.
3 - وقد استقر كذلك أن غالب العقوبات المكفّرة للجنايات في الشريعة الإسلامية رعت جانب تأمين الحياة الإنسانية، إنْ بتحرير الرقاب، وإنْ بإطعام الأبدان، وإنْ بكسوتها.
4 - وقد استقر أن عددًا من مناسك الإسلام رعت جانب تأمين البدن، فجعلت الإطعام سبيلًا إلي إقامة الشعائر والمناسك؛ في الهدي، والأضاحي، والعقائق، والولائم، وغيرها، ثم استقر كذلك امتداح الإنسان المؤمن في الذكر الحكيم بوصفٍ جامع دوَّار هو إطعام الطعام على حب الله تعالى أصناف العاجزين من خلقه سبحانه.
5 - وقد استقر كذلك أن محورين من محاور عناية الله تعالى بمحمد ﷺ قبل بعثته توجها إلى إيوائه، وإغنائه، وما الإيواء والإغناء إلا قيام بموجبات تأمين البدن إطعامًا وكسوة وإسكانًا

وتزويجًا وتمليكًا.. إلخ.
لقد منّ الله على نبيه فقال ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى: 6 - 8) فكان مجموع ما منّ به سبحانه عليه مُفضيًا إلى تقرير أن القرآن المكي جعل محور تأمين حياة الإنسان أساسًا أصيلًا في التصور الإسلامي، شريطة أن نفسر القرآن الكريم تفسيرًا حضاريًا.
6 - وقد استقر أيضًا حفاوة القرآن الكريم بأصل تأمين الإنسانية في نفسه، بما ورد منذ نزول القرآن في مكة من تعانق حفظ مادة بدن الإنسان بتحقيق أمن نفسه، على ما ظهر من آيات سورة قريش، وعلى ما تواتر في الشريعة، ونصوصها العالية من حرمة تفزيع النفس، وحياطتها بما يحقق أمنها بكل صنوف الندب والتكريم.
ثانيًا: تنمية الملكات الإنسانية: محور من محاور التفسير الحضاري للقرآن الكريم.
وفي خطوة تالية متعانقة مع صاحبتها يمكننا أن نقرر أن القرآن المكي يقف أمام محور تنمية الإنسان، بما يقود إلى تقرير أنه محور آخر مركزي من محاور قيام الأمة المسلمة بواجب سيادتها وهمينتها وعلوها، إذا ما تحاورنا مع القرآن الكريم من زاوية منهجية تفسيرية جديدة، وهي زاوية التفسير الحضاري.
وهذا المحور المركزي، نرى أن يُوزَّع على ثلاثة فروع متكاملة غير متنافرة، وهي:
أ - تنمية الملكات العملية (عمل الجوارح).
ب - تنمية الملكات العقلية (العلم).
جـ - تنمية الملكات النفسية (التزكية).
وفيما يلي محاولة موجزة للتحشية على بنود هذا المحور من محاور النظر في الكتاب من زاوية التفسير الحضاري.
أ - تنمية الملكات العملية:
إن المتأمل لطبيعة الفكرة الإسلامية، في نصها الأعلى، وفي تطبيقات صاحب البلاغ ﷺ، يجد عجبًا في هذا الباب، إذ قد توافرت العلامات التالية بشكل يبعث على التأمل الجاد:
1 - جاء النبي ﷺ وقد كان شغله منصرفًا نحو تغيير ثقافة العرب نحوالمهنة والعمل اليدوي، بما رتبه من أجر العمل اليدوي:»من بات كالّا (متعبا) من عمل يده بات مغفورا له« وبوصفه لليد الخشنة من أثر العمل الشاق بأنها يد يحبها الله ورسوله، وبما عاون فيه صحابته في الأعمال اليدوية، جمعًا للحطب، وحملًا لنتائج حفر الخندق، وحَطمًا لصخور خيبر.. إلخ.
2 – فشا في الذكر الحكيم الإخبار عن الأنبياء جميعًا بأنهم عملوا أعمالا يدوية مهنية في البناء ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة: 127) ومنها الحدادة ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾(الأنبياء: 80).
3 - ربط الله سبحانه بين أداء العبادات وبين منجز الحضارة من عمل اليد، فاشترط ستر العورة في الصلاة، وطهارة الماء، بل إن الزكاة لن تكون إلا بعد غنى أفراد الجماعة المسلمة، وتراكم الأموال والحيوان، وعوائد التجارة، وآثار صناعات التعدين، وغيرها.
4 - استقر في بعض القصص القرآني أثر العمل اليدوي، بما هو منجز حضاري في تغيير أمم كاملة، والانتقال بهم من الكفر إلي الإيمان، وتأمل قصة مملكة سبأ بعد دخول ملكتهم الصرح رأت تقدم منجز سليمان عليه السلام وقومه حضاريًّا أقرت بظلمها نفسها، وإسلامها مع سليمان لله رب

العالمين، والمدهش حقًا هو تعقيب سليمان الذي قال ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾(النمل: 42) وهو ترتيب عجيب يستحق التأمل الطويل؛ حيث جاء العلم قبل الإسلام.

وهذه العلامات كفيلة بأن تصحح مسيرة المجتمعات الإسلامية التي تهمش التعليم الصناعي، وتؤخر رتبته في أبناء الأمة.

ب - تنمية الملكات العلمية (العلم):

وفي فرع ثان لتنمية الإنسان في التصور القرآني، يظهر العلم أساسًا فاعلًا في هذه التنمية لملكات الإنسان، بحيث نراه في الدعاء والذي دعا به نبينا ﷺ لنفسه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾(طه: 114) وفي عدد آخر من العلامات، يمكن إيجاز بعضها فيما يلي:

1 - جعل القرآن أساسًا في مؤهلات الملك (إن الله زاده بسطة في العلم والجسم) ليتقدم في الوزن النسبي على القوة والمال معًا.

2 – افتتاح الذكر الحكيم بفعل ظاهر معناه طلب العلم في (اقرأ) مع توافر النص من ذكر العلم، وأدواته، وامتداحه، وامتداح طالبيه.

3 - استقرار فضله في تثبيت قلب النبي ﷺ على ما روي في حديث البخاري من كلام ورقة بن نوفل، وهو رجل عالم بالكتاب القديم الذي ذكر فيه للنبي ﷺ أن الذي جاءه إنما هو الناموس أو الوحي الذي نزل على من سبقه من الأنبياء.

4 - استقر فهم السلف على سبق العلم للإيمان والعمل، وهو ما استخرجه البخاري فيما ترجم به لباب (العلم قبل الإيمان والعمل).

5 - استقرار تسويته بالحياة بما يظهر من حكم النبي ﷺ على أسرى بدر افتداء أنفسهم بتعليم كل أسير عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

6 - استقرار الحكم بتبعية المتعلم للعالم مع تفاوت المراتب، وهو عين ما فهمه القرطبي من قوله تعالى ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾(الكهف: 66) ومن عجيب ما قد يظهر في هذه القصة أن الله رتب للعبد الصالح الاشتراط على موسى، وعتابه، وعقابه، ورتب لموسى أن يتابع ويقبل الشرط، ويعتذر عن النسيان، وينزجر بالعقاب للعبد الصالح.

7 - لقد بعث النبي ﷺ زيدا في بعثه لتعلم لغة من اللغات، وفي هذا برهان لهدم من يحاول الانتصار لنوع معرفة في مواجهة إهدار نوع معرفة آخر.

8 - ولقد استقر تقدير القرآن الكريم لأنواع العلم جميعًا؛ فقد قدر المعلومات الغفل من التحليل في مثل:﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾(النمل: 22) وقدَّر رتبة مقاومة الجهالة، وارتقي بمقام الوحي وجعله حاكمًا ومصححًا لغيره من المعارف.

ومجموع هذه العلاقات تقرر أن العلم جناح ظاهر الأهمية على طريق تنمية الإنسان في التصور القرآني منذ تنزل الذكر الحكيم في مكة المكرمة.

جـ - تنمية الملكات الإنسانية النفسية (التزكية):

وإذا كان الغرب قد خطا أشواطًا واسعة في البابين السابقين– فإن واحدا من سيناريوهات المستقبل ظاهر في تدمير الكون بالمنجز الحضاري المفتقد إلى التزكية.

ومن هنا فإن فضيلة الحضارة في التصور القرآني ظاهرة في ترشيد تنمية الملكات الإنسانية العملية والعلمية بما يضبط حركتها وآثارها بروح التزكية.

وفيما يلي محاولة لتأمل هذا الفرع الخطير في قائمة صوانع التنمية الإنسانية.

1 - لقد أمر الله تعالى بالتزكية بما هي تطهير شامل للنفس الإنسانية، وبأساليب متنوعة في مثل قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾(الشمس: 9) وقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾(الأعلى: 14) وكما ورد فى الدعاء المأثور (وزكّها أنت خير من زكّاها).

وهذا التنوع يضخّم من قيمة الأمر بها، وهي قائمة على جناحين، جناح الهبة الربانية ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾(النساء: 49) وجناح الجهد البشري، وفي هذا السبيل رسم الشرع الحكيم طريقًا من إجراءات كثيرة لصناعة التزكية.

2 - يظهر من فحص مقاصد العبادات أنها محققة للتزكية والتطهير؛ فقد جعل الله تعالى العبادات المادية طريقًا للتزكية: فالوضوء والصلاة، والصوم، والحج عبادات مقصود في بعض قوائم مقاصدها تحقيق التزكية لممارسيها، وطلب تحقيق التزكية ظاهر في النص عليها، فالصلاة مرتبطة بنفي البغي والمنكر والصوم لخلق التقوى، والزكاة للطهرة عمومًا وخصوصًا، والصدقة للتطهير.

3 - وقد جعل الله سبحانه حفظ البدن من المعاصي سبيلًا للتزكية والتطهير، وهو ما يظهر من قوله تعالى ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾(النور: 30).

4 - وجعل الله تعالى التلاوة والعلم والحكمة سبيلًا مألوفًا لتزكية الأنفس يقول تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾(البقرة: 129).

5 - وقد حذر القرآن الكريم من سبيل سلوك التزكية عن طريق اغتيال الطبيعة البشرية، فرعى الغريزة ووضع منهجًا لإشباعها فأباح الطعام، وأباح لذاذاته، وأباح الزواج وأثاب على متعه، وقد كان ظاهرًا تشديد التطبيقات النبوية في هذا المقام على من يبالغ في اغتيال الطبيعة البشرية، ولو في طريق طلب تحقيق التزكية.

6 - وقد استقر في التصور القرآني منذ مكة أن التزكية لا تعني إسقاط التدبير، وهو ما فهمه المفسرون من قوله تعالى ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾(الكهف: 62)، مما يدل على أثر عمل الزاد في الرحلة، ومن المدهش أن نرى العبد الصالح، وليًا كان أو نبيًا وفتاه حملا الزاد وانشغلا به حين دبَّرا للرحلة.

7 – وقد استقر في التصور الإسلامي التسوية بين الرجال والنساء في تحقيق مقام الولاية إذ كَمُل من الرجال كثيرون، وكَمُل من النساء أيضًا عدد منهم مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم.

8 - واستقر في الشريعة أن للطعام الحلال أثرًا في تزكية النفس، فقد طلب أهل الكهف من صاحبهم أن يمدهم بما هو أزكى طعامًا، ورتبت السنة استجابة الدعاء من طعامه من الحلال.

9 - واستقر في السنة حياطة الإنسان بمعية الله تعالى في كل الأحوال بما شرعه من الأذكار جميعًا.

خوفًا من انكماش القرآن!

في مواجهة الإيمان بمرونة القرآن، واكتنازه بالحكمة، والخير والهداية فإن ثمة مخاوف حقيقة من أضداد هذه الأوصاف، وهو ما يعني انكماش القرآن لو منعنا من تجديد التفسير للوفاء بمطالب الحياة المتجددة.

لقد حذر بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين من هذا المعنى، الذي يرى أنه بعض ما يمكن فهمه من قوله تعالى الذي يحكي شكاة النبي ﷺ قومه الذين اتخذوا القرآن مهجورًا ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾(الفرقان: 30) ويقول الدكتور «خالص جلبي» في كتابه سابق الذكر ص(255 - 256) فيما عنوانه.. انكماش القرآن: إن «القرءان وهو يضم مئة وأربع عشرة سورة نرى أنه على لسان خطباء يوم الجمعة قد انكمش إلى آيات معدودة»!

والدعوة إلى التفسير الجديد للقرآن الكريم هي دعوة إيجابية لمقاومة انكماش القرآن الكريم، ومقاومة كل محاولات هجرانه.

ثانيًا:حاجتنا إلى تدبر الذكر الحكيم

كان مما أخرجه الإمام الجليل أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتاب «آداب الشافعي» ومناقبه قال: سمعت محمد بن الفضل البزار، يقول: «حججت مع أحمد بن حنبل، ونزلت في مكان واحدٍ معه أو في دار (يعني مكة)، وخرج ابن حنبل باكرًا، وخرجت أنا بعده، فلما صليت الصبح: درت المسجد، فجئت مجلس سفيان بن عيينة، وكنت أدور مجلسًا مجلسًا، طلبًا لأحمد بن حنبل حتى وجدته عند شاب أعرابي، وعليه ثياب مصبوغة، فزاحمته حتى قعدت عند ابن حنبل، فقلت: يا أبا عبد الله: تركت ابن عيينة وعنده من الزهري، وعمرو بن دينار، وزياد بن علاقة والتابعين، وما الله به عليم؟ فقال لي: اسكت، إن فاتك حديث بعلو تجده بنزول لا يضرك في دينك، ولا في عقلك، أو في فهمك، وإن فاتك هذا الفتى أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيت أحدًا أفقه في كتاب الله، من هذا الفتى القرشي (التأكيد من عندي).

كتاب للتحرير والتنوير

وأنا أحب لك أن تتجاوز بهذه الرواية حدود ما تستشهد به عليه من شأن الإشادة بفضل الشافعي، وعلو مكانته، إلى شيء آخر جليل في هذا السياق، وهو ما عبرت عنه الرواية على لسان أحمد بن حنبل بقوله: إن فاتك حديث بعلو تجده بنزول لا يضرك في دينك، ولا في عقلك أو في فهمك، وإن فاتك أمر هذا الفتى أخاف ألا تجده إلى يوم القيامة، وبإعمال مبدأ المخالفة يمكن أن نقرر أن فوات الفقه في الكتاب، وفوات تعقله، وفوات تفهمه قائد إلى الإضرار بدين المرء، وعقله وفهمه عن الله تعالى.

وأنا أحب لك قبل أن نسترسل في هذا الحديث المخوف المشتبك، بعدد وافر من مظنات سوء الاستقبال، ولفهم كلامي على أن أشير إلى مجموعة من الملاحظات قبلًا كما يلي:

1- أرجو ألا يفهم مما سوف أسوقه تهوين أمر تلاوة الكتاب العزيز، فذلك الزاد الذي لا يصح أن يخلو قلب مسلم منه!

2- كما أرجو أن نتخطى بأمثال هذا الخطاب أن نتوقف عند حدود مرتبة التتعتع إلى مرحلة المهارة لا في مجال التلاوة، وإنما في مجال التدبر.

3- كما أرجو أن ننتبه إلى مسألة مهمة جدًّا، تغيب في كثير من الأوقات مع شهرتها واستفاضة هذه الشهرة، وهي أن القرآن الكريم كتاب نزل ليحكم، ونزل ليحرر الحياة، ونزل ليرقى بها، ونزل ليعمل به، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتجاوز القطار الذي يحمله - وهم المؤمنون به - محطة التلاوة، إلى محطات التدبر والمعرفة، ومن هذا الأمر قررنا أن المسلم المعاصر بحاجة ماسة إلى استثمار ذلك النص العزيز الفريد معرفيًا.

توسّع دائرة التحذير من هجر القرآن

ومما يثير الانتباه توقف مفسري القرآن الكريم، أمام قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (سورة الفرقان: 30)، ومنهم القرطبي الذي يقرر في تفسير (2783) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ يريد محمدا - ﷺ - يشكوهم إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي قالوا فيه غير الحق».

وهذا الذي أجمله القرطبي يحتاج إلى نوع بسط وتفصيل، بحيث يمكننا أن نقرر أن حُمَّى العناية بالتلاوة من عموم المسلمين (عوامهم وخواصهم أو نخبهم) ربما يقودنا إلى أن نقرر أن المسلمين

المعاصرين داخلون في عموم من يشكوهم الرسول - ﷺ - بسبب إهمال تدبره، والعمل به، والحركة لاستعادة تحكيمه، وإدارته للعالم الإسلامي.
وربما يزداد هذا الإقرار وجاهة في ظل توجه خصوم القرآن وأعدائه نحو اتهامه بعدد وافر من القبائح، وتوزيع ذلك الاتهام على جوانب عديدة تتعلق بالنص العزيز؛ بدءًا بمصدره وانتهاءً بألفاظه ومفرداته، ومرورًا بتراكيبه وبلاغته وحقائقه وتشريعاته... إلخ، وعكوف المسلمين على ترداد آياته «وهو المفهوم من الاقتصار على عبادة تلاوته» مع إهمال استثماره معرفيًا.
ومما يزيد من مخاطر ما ينتج عن هذا الاستنباط ما ورد في الآية الكريمة من تذييل، يقول فيه سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (سورة الفرقان: 31)، وهو ما قد يعني أننا بإهمال الاستثمار المعرفي للقرآن يمكن والحال هذه أن يدخل الهاجرون لتدبره، والمكتفون بتلاوته إلى صفوف الأعداء المجرمين لله ورسوله - ﷺ - وهو ما لا يمكن أن يتصوره مسلم في نفسه!
ومن جانب، فإن آخر هجر تدبره واستثماره معرفيًا قاضٍ إلى نوع من قطعه، وتحوله إلى نص بلا أثر، مما يمثل إضلالًا للجماهير المسلمة، وهو ما مال إلى إقراره «البقاعي» في تفسيره (نظم الدرر 13 / 377)، حيث يرى أن هجره نوع من أنواع الضلالة والمهانة لمرتكبه.
التفسير المأثور للتلاوة
ومما يدعم الدعوة إلى توسيع دائرة الإقبال على القرآن الكريم، ووصله والبر به بصور تفوق صور قراءته وأداء حروفه وألفاظه ما أثر من تفسير الصحابة والتابعين لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (سورة البقرة: 121)، وقد أخرج السيوطي في تفسيره (الدر المنثور في التفسير بالمأثور 1 / 576) عددًا ضخمًا من المرويات يدور مجملها حول العمل والتحكيم يقول:
1- عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (سورة البقرة: 121) قال: يحلون حلاله ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه.
2- وعنه كذلك أن معناها «يتبعونه حق اتباعه».
3- وعن عمر بن الخطاب أن معناها: إذا مر بآية فيها ذكر الجنة، سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار.
4- وعن ابن مسعود: ولا يتأول منه شيئًا غير تأويله.
5- وعن عكرمة معناها يعمل بأوامره وينتهي عن نواهيه.
وهذا المجموع من الآراء المرفوعة حتمًا إلى النبي - ﷺ - استقرت على مفاهيم الاتباع والعمل، وهو ما يجب مراعاته في عملية الدعوة إلى استثمار النص العزيز معرفيًا، ولتكن البداية من الشهر الكريم.
وكيف تعامل معه القدماء معرفيًا؟
وفي هذا السياق نتذكر جميعًا حديث عمر أنْ قرأ البقرة في عشر سنين، لا يتجاوز آية حتى يعمل بها، ويلزم بها نفسه، ومن كانت له ولاية عليهم.
ونستطيع أن نقرأ كيفية استثمار الأمة قديمًا للنص العزيز معرفيًا، يوم كان القرآن الكريم هو الحاكم، والمهيمن على توجيه الحياة في جوانبها المختلفة، ويمكن تأمل المناطق التالية:
1- استطاع علم البصريات (الضوء) عند المسلمين باستلهام القرآن معرفيًا، أن تحدث واحدة من كبرى الثورات العلمية التجريبية القديمة الموروثة عن اليونان.

فلقد كان الشائع أن العين تبصر الأشياء، وهو ما عدله الحسن بن الهيثم ليقرر أن العين يسقط عليها الإبصار من خارجها، بمعنى أن تقنية الرؤية تتم عن طريق سقوط شعاع الضوء على العين؛ لتتم عملية الإبصار، وقد كان ذلك بتأمل واستثمار معرفي لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء: 12).

2- استطاعة علم الجغرافيا عند المسلمين من أثر استلهام الأوامر القرآنية بالضرب في الأرض، وتذليلها أن يكتشفوا عددًا كبيرًا من المواطن، وأن يقدموا معلومات فذة فيما يتعلق برسم خريطة الأرض وقياسات أبعادها.

3- استطاع علم اللغة عند المسلمين بوحي من خدمة القرآن الكريم واستلهامه معرفيًا أن يؤسس لتنوع خلّاق في شبكة العلوم القائمة على أمر تفسيره.

هذه مناطق ثلاثة فقط، وبالإمكان أن نزيد زيادة ضخمة جدًّا فيما أثره القرآن الكريم في خريطة المعرفة الإسلامية في مناطق العلوم الشرعية، والعربية، والحكمية، والتجريبية، حتى يصح أن نقرر أن الحضارة الإسلامية التي امتدت ما يقرب من عشرة قرون، ما هي إلا تفسير عملي واقعي لمفهوم التعامل مع القرآن الكريم، وتطبيق داعٍ لمعنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (البقرة :121).

المسارات المعاصرة

إننا نستطيع أن نقرر أن قطار التعامل مع النص العزيز مكوّن من عربات كثيرة جدًّا، لكن عربة القيادة التي تجرّ كل العربات هي عربة الاستلهام المعرفي، وقد أمكن قديمًا أن يهيمن القرآن الكريم على جنبات الحياة فيها.

والمأمول اليوم أن يعاد استلهام النص العزيز معرفيًا في المناطق التالية:

أولًا: العناية من قبل المسلم المعاصر باليقين في مصدر النص العزيز، وأنه نص إلهي رباني، وأن يتحصن بيقين مدعوم بالأدلة المتنوعة من النقد الخارجي، والنقد الداخلي، والبناء المفاهيمي والمعلوماتي بأن القرآن الكريم نص معجز، لا مجال لشبهة واحدة فيه.

ثانيًا: العناية من قبل المسلم المعاصر بالدوران في فلكه، والانطلاق من حقائقه ومعارفه، وإخضاعها للفحص والتأمل والدرس، والتحري لا لقياس صدقها، بل لإنتاج معرفة نافعة للبشر في المجالات المختلفة.

ثالثًا: العناية بصناعة نسق تربوي منبثق منه، ومحكوم بمعارفه لإعادة تكوين الوعي والوجدان لدى جماعة المسلمين، وهي الطريقة اللازمة لصناعة وحدة الأمة مع ترامي حدودها الجغرافية.

رابعًا: التحيز بالمفهوم المعروف في دراسات علم اجتماع الحضارة لمجموع ما ورد فيه من حقائق تتعلق بنفسية الإنسان، ومجالات تزكيته، وقوانين الصعود الحضاري، والسقوط الحضاري في ارتباطها بحقائق التوحيد، والتشريع، والمنظومة الأخلاقية والقيمية التي أقرها الكتاب الحكيم.

خامسًا: العناية بالحركة الساعية إلى إعادة تحكيمه في البلدان الإسلامية المختلفة.

سادسًا: قراءة النص الحكيم لضوء حركة النبي - ﷺ - باعتبار هذه الحركة النبوية هي الإطار الفاعل الذي ترجم القرآن إلى تطبيق عملي أنتج هذه الحضارة الجبارة.

الوزن النسبي للعبادات

وفي هذا السياق علينا أن نذكّر بمفهوم قارٍ في المحيط العلمي عند فقهاء المسلمين عُبِّر عنه بأكثر من صيغة، منها الاقتصاد في العبادة، والمراد بهذا التعبير الالتفات إلى ما يسمى بالوزن النسبي

المتفاوت للأشياء.
وهو ما يتجلى كثيرًا فيما سماه القدماء بتقديم الأوجب عند تعارض الواجبات، فإذا كانت الصلاة واجبة، وإنقاذ إنسان يشرف على الهلاك واجبًا، تقدّم واجب إنقاذ الحياة.
وفي هذا السبيل نقرر أن ضرورة العصر، وفريضة الوقت تلزم المثقفين المسلمين، وعموم المتعلمين في الأمة أن يتوجهوا إلى التعامل مع القرآن بمنطق جديد يرقى بمفاهيم العمل به والتدبر له، والتطبيق لمعارفه والاحتكام - فيما نصدر عنه من أحكام وحركة ودعوة في الميادين المختلفة - إلى النص العزيز.
إن واجب الوقت أن نجتهد في صناعة نظرية تربوية قرآنية، ونظرية إعمار قرآنية ونظرية قانونية قرآنية، ونظرية لغوية قرآنية، ولن يتأتى شيء من هذا إلا بتجاوز قطار الحاملين للقرآن لمحطة التلاوة، والترديد الصوتي إلى آفاق إنتاج المعرفة.
وهنا نلمّح إلى واجبات معينة يلزم تحصيلها على طريق الاستثمار المعرفي للنص:
1- بناء يقين معرفي في ارتباط النص بالله سبحانه عن طريق مقومات نقدية خارجية (طريقة وصوله إلينا)، ومقومات نقدية داخلية (طريقة رد الشبهات).
2- بناء معرفة أساسية بلغته من مستوى المعجم، والتراكيب والنص، ولا يصح التوقف فيها عند حدود ما قدمه المفسرون القدماء.
3- فحص النظريات العلمية المعاصرة في ضوء معارفه.
4- مراجعة السنة النبوية الكريمة، مراجعة تأمل واستنطاق؛ لأن السنة هي البيان العملي للنص العزيز.
5- مراجعة الإسهام العلمي لعلماء الأمة خلال تاريخها الطويل، مع التركيز على الخلفيات القرآنية التي ألهمت هذه الإسهامات.
إن التعامل مع النص العزيز من بوابة التدبر، ولو قاد ذلك إلى ندرة ختمة تلاوة لفظية، أو على مستوى القراءة، وليعلم الجميع أننا مأمورون بتلاوته حق التلاوة، وحق التلاوة في المفهوم المأثور، والمفهوم المعاصر الضروري يتجاوز - بمراحل واسعة - ما يفعله المسلمون المعاصرون في الاكتفاء بالتنافس مع عدد مرات قراءته!.

ثالثًا:مراجعة القرآن

ضرورة في مراحل التوتر والانتقال

هل صحيح أن القرآن الكريم يفسره الزمان؟!

إن التتابع الذي شهده ميدان تفسير الذكر الحكيم مثير للانتباه، ومحتاج إلى فضل تأمل، لقد درسنا قدرًا كبيرًا من تفسير النبي (ﷺ) لعدد كبير من كلمات الكتاب العزيز وآياته، جمعها أصحاب الصحاح والسنن في مدوناتهم الحديثة تحت عنوان جامع هو: كتاب التفسير، وصل في الحجم إلى الثمن في صحيح البخاري مثلًا، فلماذا نشط الصحابة من بعده (ﷺ) في مجال النظر في الكتاب الكريم وتفسيره حتى طارت شهرة نفر منهم في هذا المجال، ثم لماذا اتسعت رقعة المنجز التفسيري على عصر التابعين وتابعيهم، ثم ظهرت منهجيات ومدارس حكمت مسيرة هذا العلم في منظومة العلوم في الحضارة الإسلامية؟ الأمر يحتاج إلى التأمل.

والسؤال الملح لماذا لم يكتف كل جيل بمنجز الجيل الذي سبقه وقاده إلى استخراج معاني الآيات الكريمة؟ وهو السؤال الذي يفتح الباب واسعًا أمام استدعاء القاعدة العجيبة التي تنسب في العادة إلى الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، والتي تقرر أن القرآن يفسر الزمان، ذلك أن لكل جيل مطالب واحتياجات، وهو ما يفرض على كل جيل معاودة النظر والفحص لهذا الكتاب العزيز، الأمر الذي يحملني على القول بأن القرآن الكريم يتنزل من جديد مع كل جيل!

وهو بعض ما يفسر عندي تجدد الحاجة إلى التفسير، وتنوع أشكاله ومناهجه.

الخروج من التوتر
مسالك وقضايا

إن فحص الذكر الحكيم، ومراجعة الذين حاولوا أن يستخرجوا مقاصده وغاياته يقودان إلى تأكيد مجموعة متنوعة من هذه المقاصد والغايات، صحيح أن ثمة تفاوتًا في التعبير عنها، وفي تعدادها، ولكنها مع تقرير هذا التنوع والتفاوت والاختلاف متداخلة متشابكة متفقة.
إن الأمر صحيح إذا كانت: توحيدًا وتزكية للأنفس وعمرانًا للوجود كما يقترح د. طه جابر العلواني، والأمر صحيح إذا كانت عدلًا ورحمة ومساواة عند غيره من المعاصرين، والأمر صحيح كذلك إذا كانت تحريرًا للخلق، وتنويرًا لدروب السعي في الحياة عند آخرين.
وإذا صح ما روي عن ربعي بن عامر– وهو صحيح إن شاء الله– في حضرة رستم قائد الفرس من أن الله أنزل كتابه الكريم وأرسل رسوله (ﷺ)، ليخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة– فإننا نكون أمام فهم قديم وعريق ومستقر في الأمة يرى في مطلب الهداية التي عبر عنها القرآن الكريم عن غايته وفسر بها سر تنزله مرادفًا لأمرين جامعين وردا على لسان ربعي، ألا وهما:
أولًا: تنقية الوجود الفردي والجمعي من أوشاب الشرك وأدران عبادة غير الله تعالى، مع التوسع الشديد في هذا السياق بما يجعله خروجًا للتحرر الإنساني من كل أشكال العبودية لغير الله سبحانه وتعالى.
ثانيًا: تحقيق مطالب السعة الدنيوية والأخروية، وهي السعة التي تشمل المعاني المادية والمعنوية جميعًا.
ومن هنا فإن إعادة تدبر القرآن الكريم في أجواء التوتر ومراحل الانتقال يمثل ضرورة دينية وضرورة واقعية دنيوية، لتعيين المسارات التي من شأنها أن تسهم في التخلص من أعباء التوتر والضغوط.
ويشتمل الذكر الحكيم على نوعين من النصوص والآيات التي يمكن أن تمثل مسالك لتحصيل النجاة من مراحل التوتر والاحتقان والفتن تتوزع على ما يلي:
أولًا: الآيات التي تمثل قواعد كلية، ومقاصد عليا، كالتقوى والتراحم والإخلاص، وغير ذلك.
ثانيًا: الآيات التي تقص علينا قصصَ كثيرٍ من أنبياء الله تعالى، ولاسيما في مراحل التوتر والاحتقان والفتن والأزمات.
ثالثًا: المواقف القرآنية في معالجة المراحل الفارقة في تاريخ الأمة والمنهج في ذلك.
كليات القرآن الكريم الإيمانية
القرآن الكريم كتاب هداية في الأساس، كان هذا وما يزال القول الجامع الفصل في تأسيس النظر إلى الذكر الحكيم، وهدفه الذي يعلنه للناس جميعًا، والتنوع في إعلان هذا الهدف يعكس حرصًا عليه وتوكيدًا له، يقول تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:1 - 6) ويقول تعالى ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:2)، ويقول عز وجل ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (يونس:25).
ومدونة آيات الهداية في الذكر الحكيم ترتبط في الغالب بوسائل تحقيقها وتنزلها على الأرض.

وفحص هذه المدونة الجليلة كاشف عن علاقات جديرة بالتأمل والدرس، ذلك أن الهداية تتصادم فلا تتحقق للأفراد والمجتمعات إذ ظهر في الأجواء القيم السلبية التالية:
الظلم، يقول سبحانه ﴿والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين﴾ (التوبة: 19).
الفسق وعدم كمال الطاعة يقول سبحانه ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:24).
ج - الخيانة والغدر والكذب، يقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (يوسف:52)، ويقول سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر:28).
وفي المقابل نلاحظ ارتباطًا عجيبًا بين الهدى ومجموعة من القيم الإيمانية الإيجابية الفاعلة في حركة الأفراد والمجتمعات، وهو ما يظهر في الملامح التالية:
ارتباط تحقق الهداية بالاتّباع وكمال الطاعة لله تعالى يقول سبحانه ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (مريم:43)، ويقول سبحانه ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:38).
التعلق بالذكر الحكيم يقود إلى الهداية، وهو الذي يعني الإيمان والعمل بما فيه. يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:9)، وربما كان من معانيه استصحاب معية الله تعالى، ودوام مراقبته، يقول سبحانه ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء:62)، وربما كان معناه الاعتصام بالله تعالى يقول جل وعز ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران:101).
ويعود الذكر الحكيم فيقرر مجموعة من القوانين الكلية التي ترتب النجاة بمعناها الواسع، وأشكالها المتنوعة لمن حصّل الإيمان وأخلص الدين لله تعالى، والنجاة المترتبة على ذلك تظهر في الكتاب العزيز مطلقة غير محصورة في نجاة الآخرة، ولكن يدخل فيها النجاة في الدنيا بما يعني أن انكسار التوترات مرتبط في كثير من آيات الذكر الحكيم بإخلاص الدين لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (لقمان:32)، وتحليل الآية بآلية الاستدلال يكشف عن أن إخلاص التوجه إليه سبيل إلى النجاة.
وتتسع العلاقة بين الإيمان والنجاة وتنفتح بغير مقيدات من الزمان أو المكان، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (هود:58)، ثم تنفتح القضية فلا ترتبط ببيان زمني أو مكاني في مثل قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (فصلت:18) ويقول تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ (الزمر:61)، ويقول سبحانه: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ (الأنبياء:88).
إن قيمة هذا الطرح الأولى تتجلى في تأسيسه لقوانين النجاة على الارتباط بقيم الإيمان والتقوى والصدق وعدم الغدر وعدم الخيانة. والنجاة معنى واسع يحتوي في المركز منه دلالات نفي التوتر ونفي المحنة ونفي الفتنة، وما إلى ذلك من سقوط الأزمات المادية والنفسية على السواء.

قصص الأنبياء
من المحنة إلى الأمان

لقد كان من فطنة كثير من علماء أحكام القرآن الكريم اعتبارهم القصص القرآني داخلًا في نطاق ما يعرف باسم آيات الأحكام، ونحن نحب أن نوسع المسألة فنقرر أن قصص الأنبياء مدخل جبار لإعادة الاعتبار للفقه الاجتماعي، والنظر في قوانين حركة المجتمعات.

وفي هذا السياق، فإن فحص القصص القرآني يدلنا على مجموعة من العلامات الظاهرة النافعة في التعامل مع مراحل التوتر والانتقال في حياة المجتمعات المسلمة.

لقد ألح الكتاب العزيز على إعلان نجاة الأقوام الذين اتبعوا كل نبي مشفوعًا ببيان إجمالي لأسباب تفضل الله تعالى بنجاتهم، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (هود:66)، ويقول سبحانه ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (هود:94)، ويقول تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ (الشعراء:65)، ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ (البقرة:50)، وقصة موسى (عليه السلام) ينبغي أن تكون مركزًا في تحليل مراحل الانتقال في مصر على امتداد التاريخ لاعتبارات كثيرة، لعل أهمها تواصل ذلك التاريخ– وتراكم آثاره في طبيعة الشخصية المصرية، هو الأمر الذي يمكن أن يسهم في تفسير تصرفها وسلوكها الحي.

ومن المفيد جدًا تأمل ما استخرجه– مثلًا– د. عبد الوهاب النجار من قصة موسى (عليه السلام)، إذ يقرر في كتاب (قصص الأنبياء، مكتبة دار التراث، القاهرة، بلا تاريخ ص358)، أن التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في الأمور باعث على أن يقيض الله تعالى من ينقذ المأزومين ويهيئ لهم من يكون سببًا لنجاتهم، والمدخل المهم في هذا أن نحتاج إلى إخلاص التوكل عليه سبحانه.

كما يقرر الرجل «أن الحق لا يعدم نصيرًا» و»أن الصبر على البلوى حميد العاقبة» وأن استصحاب الحلم والرأفة بالناس ينبغي أن يكون خلقًا أصيلًا، أو استراتيجية ثابتة بلغة هذا الزمان.

إن الله تعالى فيما قصه علينا من قصص أنبيائه يحكم لأقوامهم بالنجاة والنصر بناءً على استحضار عدد من القوانين المهمة التي تعلي من الارتباط بالحق في كل وقت، والتوكل على الله سبحانه ونفض القلب من التوكل على غيره، ومن الصبر الجميل ومن الشفقة بالخلق.

ومن جانب آخر يقود تأمل ما جاء في الكتاب العزيز من آيات تتعلق بمراحل الأزمات في حياة الأمة إلى مجموعة من الحقائق الثابتة.

لقد ألح الكتاب الكريم على تنبيه الأمة في مراحل كثيرة إلى ما كان من أخطائها، ودعاها إلى مراجعة هذه الأخطاء، والإفادة منها، ففي بدر توقف القرآن الكريم أمام مشكلة الأنفال، وما كان من المجتمع بإزائها حتى نتج من جرائها تنازع وصراع على حد تعبير «ابن العربي المالكي» (ت543 هـ) في كتاب أحكام القرآن (2/834) إذ يقول «فتنازعا في ذلك»!

ونبهت الآيات الكريمة على مخاطر الاستجابة للفتنة، أيًا ما كان تأويلها ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:25) ولم تكن قيمة المعركة، وأنها يوم فارق في تاريخ الأمة، ولم يكن النصر الذي تحقق فيها، مانعين من التوقف أمام الأخطاء رصدًا وتحليلًا وحكمًا.

وقل مثل ذلك في «حنين»، التي انتصر فيها المسلمون، ولكنه نصر لم يمنع من ابتداء الكتاب العزيز قصتها بتحليل أخطاء الأمة في المعركة، لقد كان غرور القوة ظاهرًا، وربما كان هذا الغرور خطرًا ماحقًا يتهدد نبل الفكرة، ويفتن الناس عن قيمها الإنسانية والربانية معًا، لقد أطال القرآن في لغة واضحة جدًا عن هذه الأخطاء فقال سبحانه ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ،إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ (التوبة:25) لقد كان العجب أو غرور القوة أو غرور العدة أو قل غرور التنظيم مفتاحًا للهزيمة التي لم تتحول إلا بالتحول إلى قيم الانكسار لله تعالى، والإقبال عليه.

إن مراجعة الأمة لنفسها في حركتها هو الذي رشد مسيرتها وردها إلى مقامات الانتصار، وهو الأمر الذي يؤكد التوبة في الاصطلاح الأخلاقي والشرعي أو المراجعة في الاصطلاح المعاصر أمر أكثر من واجب لترشيد الحركة، وتصحيح المسارات، واستعادة المنهاج النبوي الكريم.

إنني على يقين جازم في أن القرآن الكريم يتنزل من جديد مع كل جيل وفق مطالب هذا الجيل أو ذاك، وتنزله هذا معناه قدرته المطلقة على هداية الأمة بالاستجابة لمطالبها على امتداد الأزمان وتوالي الأزمات، وهو ما يلزم معه ضرورة استدامة النظر فيه، واستصحاب هديه، وتفعيله في الحياة، ومن أجل ذلك كله جاء التحذير واضحًا من هجرانه، والابتعاد عنه.

رابعًا:
تجديد الإسلام فى العصر الحديث
مساراته وزعاماته

مدخل: تجديد الدين: مفهومه وتأصيله ودلالاته.
التجديد فى اللسان العربى مشتق من جذر دائر حول أصول بعينها ترعى العظمة والنضارة معًا. والحديث عن تجديد الدين هدفه استعادة نضارته كأنه الآن يتنزل، سعيًا لبيان عظمته وهو ما يعنى أن عمل المجددين يتلخص فى رد الناس إلى النسخة التى قام عليها ورعاها رسول الله ﷺ، وتحرك بها بين أصحابه رضوان الله عليهم، وهو يعنى كذلك قطع ما بين الدين والمتدينين وكل أشكال الانحراف، والاعوجاج من علاقات؛ أى أنه سعيٌ مستمر لتمثل صورة الإسلام فى بداياتها الأولى، ورياضة الأمة على التأسي بهذا الجيل العبقري الذي صُنِع على عين رسول الله ﷺ.
وقضية التجديد فى ارتباطها بالإسلام محوطة بسياج قوي يؤصل لها، أساسه الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود في سننه في مفتتح كتاب الملاحم 4/ 106 حديث 4291:» عن أبي علقمة عن أبي هريرة، فيما أعلم عن رسول الله ﷺ قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها».
وفي الحديث مناطق ثلاثة تستدعي قدرًا من التأمل، والفحص يمكن بيانها كما يلى:
أولًا: الحديث يلح على أن التجديد عملية مستمرة، تظهر مع كل انكسار للأمة، وانحراف فى مسيرتها، وهو بعض ما يستفاد من دلالة المضارع في صيغتي المضارعين (يبعث) و (يجدد).
ثانيًا: الحديث يلح كذلك على ارتباط مطالب التجديد بتباعد الزمان، بمعنى أن انسياب الناس في مسالك الحياة، مؤذِن بتتابع المحن، مُحوِج إلى المراجعة التي هي عين فعل تجديد الدين، ولأمر ما افتتح «أبو داود» كتاب الملاحم به، ذلك أن الملاحم في اصطلاح أهل السنن والسير تعني ضمن ما تعني الفتن، واختلاط الأمور، وضبابية الرؤية، وتعانق المحن، وللأمر نفسه عبّر الحديث عن هذا بلفظ السنة، والسنة في المعجم العربي تطلق عند إرادة التأصيل على الأيام القاسية الشديدة.
ثالثًا: الحديث يلح أيضًا على أن مطالب التجديد تحتاج إلى استفزاز ملكات الأمة جميعًا، وهو بعض ما يظهر من استعمال الاسم الموصول المبهم «من» الدال على العموم.
ويرتبط تجديد الدين في الفكر المعاصر بمطالب الإصلاح والنهضة، وهو بعض ما ظهر عند الدكتور «أحمد أمين» رحمه الله فى كتابه: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، و لاسيما أنه ضم عددًا ممّن سماهم غيره باسم المجددين، كما جاء عند «عبد المتعال الصعيدي» و «أمين الخولي» رحمهما الله فيما كتبه كل واحد منهما عن المجددين في الإسلام.
والإصلاح مراد قرآني تنوع التعبير عنه في الذكر الحكيم تأكيدًا وترسيخًا لطلبه من الأمة، يقول تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة الأعراف 7/142) ويقول تعالى:﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ (سورة هود 11/ 88)
وتجديد الدين يفتح الباب أمام مجموعة من الدلالات المهمة يلزم تأملها، يمكن إجمالها فيما يلى:
أولًا: تأكيد ختامية الرسالة المحمدية، ذلك أن انحرافات الأمم السابقة كانت تقابل بإرسال الرسل، فلما توجهت مشيئة الله سبحانه إلى أن يكون النبي ﷺ ختام الأنبياء والرسل، ظهرت قيمة علماء الإسلام بما هم مجددو الدين.

ثانيًا: تجلي الرحمة الإلهية بالأمة ذلك أن تجدد ابتعاث المجددين مع كل انحراف، أو جور، أو غبش في الرؤية هو عين الرحمة الإلهية بأمة الإسلام.

ثالثًا: تأكيد وجوب فعل الدعوة في الأمة جميعا أفرادًا وتنظيمات، ذلك أن الله سبحانه جعل فعل التجديد منوطًا برقاب الجميع بدلالة «من» العامة في الحديث، وهو ما يؤكده القول الإلهي في الذكر الحكيم:﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (سورة يوسف 12/108)

ولا يظهر الاعتذار لأحد من هذا المجموع، بدليل «من» في الآية أيضًا، صحيح أن فعل الدعوة متنوع، والناس بإزائه متفاوتون من درجة الحفظ والنقل التي هي أقل درجات الدعوة إلى ما فوقها مما لا يحصر من أفعال الوعي والاستنباط والتخريج، والتقعيد، والابتكار.

رابعًا: تأكيد روح الأمل في الأمة، وطرد معاني اليأس والقنوط، ذلك أن فعل التجديد والبعث جاءا دالَّيْن على الاستمرار، وهو ما يدعمه المنة الربانية على الأمة الإسلامية بألا يخلو زمان منها، وأنها آمنة من الانقطاع، لا تحيط بها نقمة الاستئصال.

تجديد الإسلام في العصر الحديث
منارات الطرق الأساسية

إن فحص منجز المجددين المعاصرين بإزاء قراءة الإسلام وفق الفهم النبوي، ووفق تحرك الصحابة في محاولات جادة لاستعادة هذه النسخة النضرة من هذا الدين العظيم– يقود إلى محاور ومنارات أساسية تتبدى على طريق هذه الفحص لمنجز هؤلاء الأعلام من مجددي الإسلام في العصر الحديث.

وقائمة مجددي الإسلام في العصر الحديث تبدأ من بداياته الباكرة، وفي مواطن متعددة من جغرافية العالم العربي والإسلامي.

صحيح أن نسب التمثيل متغيرة ومتفاوتة من بقعة إلى أخرى، لكن الملاحظ أن حواضر الإسلام التاريخية كانت هي الأعلى حضورًا في قوائم المجددين، لقد منحت مصر واليمن والحجاز وبلاد المغرب والشام جميعًا الإسلام في العصر الحديث قدرًا من المقاومة في وجه محاولات تدويخه وتشويهه والتخطيط لاغتياله عبر جهاد أسماء لامعة من المجددين.

إن الرحلة ما بين «الشوكاني» و «الزبيدي» و «محمد بن عبد الوهاب» من «الجبرتى الكبير» أوائل أجيال المجددين في العصر الحديث، وبين «حسن البنا» و»عبد الرازق السنهوري» و«محمد الغزالي» و«سيد قطب»– طويلة جدًا عرفت أسماء كثيرة وكبيرة جاهدت من أجل نضارة الفكرة الإسلامية، واستعادة عظمتها، وإحيائها على المنهج النبوي.

ومن الإجحاف أن نحكم على هؤلاء الأعلام المجددين بمنهج غير منهج المقاصد، بمعنى أن لا يصح أن ينال أحد من هؤلاء بسببٍ مما يراه خطأ ارتكبه في مسيرته التجديدية؛ لاعتبارات متنوعة يأتي في مقدمتها أن الناس بمجمل منجزهم، وأن الناس بمقاصد ما يسعون إليه، وبسبب آخر مهم جدًا هو أن منطق الريادة شديد الوعورة يتهدد السائرين فيه ويعرضهم بسببٍ من جدّته لكثير من المزالق.

ظالم من يحاكم «جمال الدين الأفغاني» أو «محمد عبده»، أو «حسن البنا» أو غيرهم بمنطق الحساب بالقطعة، هؤلاء وغيرهم نبلاء في زمان كاد اللئام أن يفترسوا الإسلام، لولا فضل الله تعالى على الأمة المتمثل في ابتعاثهم لغاية تجديد الإسلام لما علم مصير هذا الدين العظيم.

وتتبدى أربع منارات أساسية على طريق فحص منجز هؤلاء المجددين جميعًا يمكن أن نجملها فيما يلى:(وهي أربعة لا نزعم إحاطتها بتفاصيل ما قدموه على طريق تجديد الإسلام في العصر الحديث).

أولًا: صناعة الإنسان.

ثانيًا: تحرير الأوطان.

ثالثًا: مقاومة الاستبداد والطغيان.

رابعًا: إعادة الاعتبار للعمران.

المنارة الأولى: صناعة الإنسان:

لفظ الصناعة قديم في الاستعمال العلمي العربي يتعلق بكل فكر منظم يتوخى إنتاج معرفة منضبطة، ومن أجل ذلك سميت كثير من العلوم العربية والإسلامية باسم الصناعة، فشاع تعبير صناعة الفقه، وصناعة النحو، وهلم جرًّا.

ومن ثم فإضافتها إلى الإنسان ليست بدعًا ولا شيئًا مستطرفًا يغازل شهوة المجاز، وإنما هو تعبير حقيقي يقصد من ورائه البحث عما به يكون الإنسان إنسانًا حقيقيًا مستأهلًا للاستخلاف، أو كما يسمى في الأدبيات الصوفية بالإنسان الكامل.
وقد تجلى في فكر المجددين المعاصرين من بدايات حركة تجديد الإسلام في العصر الحديث علامات التنبه إلى أهمية صناعة الإنسان، فقد أدرك كثير من المجددين بدءًا بمحمد بن عبد الوهاب ووصولًا إلى حسن البنا.
وظهرت ملامح هذه الصناعة في رعاية المباديء الأساسية التالية:
أولًا: استعادة نضارة التوحيد، عن طريق ابتعاث المفهوم الإيجابي الذي جلاه النبي ﷺ وربّى عليه صحابته عليهم رضوان الله تعالى، واتسم بالبساطة والوضوح والمنطقية وعدم التناقض، وانسجامه مع الفطرة الإنسانية النقية الصافية عن طريق التعليم والاقتداء والدأب فى بيان حقائقه، مع الحرص على بيان إحاطته بالكليات اللازمة لبناء إنسان العقيدة في توزعها على الإلهيات والنبوات والسمعيات، وصولًا إلى مرتبة التصديق واليقين المستصحب للاطمئنان.
وفي هذا السياق يظهر جهد ابن عبد الوهاب في هذه المضمار جليًا واضحًا، ويتلخص في منجز «حسن البنا» مركزًا في متطلبات الإنسان الأولية التي يلخصها قاعدة:»سليم العقيدة»
ثانيًا: تقدير حرية الإنسان، ذلك أنه قد اتضح بصورة جليّة تركز أجيال المجددين على تقدير تحرر الإنسان باعتباره ذلك أساسًا في صناعته لدرجة حُدّت بواحد من أئمة التجديد الإسلامي المعاصرين في الغرب العربي أن يصنف مقصدًا كليًا سادسًا يتعلق بمقام الحرية الإنسانية– هو «محمد الطاهر بن عاشور»، وفي هذا السياق ظهر أن هذا الحرص على تربية الإنسان وفق استحقاقات التحرر مستمد من الفهم الراشد الذي وصل إلى جيل الصحابة رضي الله عنهم، وهو بعض ما يتبدى من كلمة الصحابي الجليل «ربعي بن عامر» عندما قال:» إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».
وارتباط التحرر الإنساني بالتوحيد أمر ظاهر الاستعلان في فكر المجددين، ذلك أن هيمنة الرب سبحانه على الحياة والأرزاق هو الضامن الأصيل لكل منابع الحرية الإنسانية، بمعنى أن كمال التوحيد، وإتقانه يفضي إلى التحرر الإنساني من كل صور العبودية بين البشر.
ثالثًا: إعادة الاعتبار للتوازن بين المادي والروحي؛ ذلك أن شكلًا من أشكال الانحراف التي تستوجب التصدي لها هو الفصل بين المادي والروحي والجنوح المتطرف إلى جانب أحدهما مع إهدار كامل أو شبه كامل لمقدرات الجانب الآخر، وهو استدعى جهادًا متميزًا من كثير من المجددين المعاصرين لإعادة الاعتبار للجانبين معًا، بحيث تقدر متطلبات المادة، مضمومًا إليها متطلبات الروح.
وهو ما تجلى في الدعوة إلى العناية بالعلوم الحكمية من طب وهندسة وفلك وكيمياء وزراعة، بعد أن طُردت زمانًا من أروقة العلم عند المسلمين في معاهدهم التقليدية العريقة.
رابعًا: التأكيد على المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة، بما هما إنسان كامل الإنسانية، لقد تخلف العالم الإسلامي كثيرًا بسببٍ من الهدر الذي أصاب ملكات المرأة، وتغييبها عن جهاد الأمة في سبيل الترقى والنهوض، فجاهد نفر كبير من مجددي العصر الحديث في سبيل استعادة مجموعة

من حقوق النساء على هدي ما كان شائعًا من تكريم النبي ﷺ، واستعمالهن في خدمة الدولة المسلمة وبنائها، ونهضة مجتمعها، في السلم والحرب جميعًا.
وهذه الدعوة المعاصرة أعادت التركيز على المراد القرآني من عدم التفرقة بين الذكر والأنثى، وأنهما من أصل واحد ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (سورة النساء 4/1) وهو ما حمل عددًا منهم على القول بنبوة النساء متابعة لابن حزم الذي عقد بابًا لنبوة النساء في كتابه (الفصل في الملل والنِّحل)، وهو ما جنح إليه المفكر الإسلامى المعاصر «راشد الغنوشي» في كتابه المهم (المرأة بين القرآن الكريم وواقع المسلمين).
خامسًا: إعادة الاعتبار لأصحاب الملكات وأهل الكفاءات، فقد ظهر من تحليل المجددين لأحداث السيرة النبوية المشرفة عناية بالغة بالإنسان صاحب الملكات المؤهل الكفء، ووقف عدد كبير منهم أمام حادثة الهجرة العظيمة ليقرروا أن ما ظهر من سر أحداثها يصب في باب تقدير الكفاءات من دون النظر إلى أي أبعاد أخرى، بحيث نشهد توظيف الرجال والنساء، والكبار والشباب والمسلمين وغير المسلمين، لقد كان المعيار الحاسم في تأسيس الدولة الإسلامية في العصر النبوي.
لقد تراكم مجهود جبار بداية من انطلاق حركة تجديد الإسلام في العصر الحديث ابتداء من «الشوكاني» و «الزبيدي» و «ابن عبد الوهاب» و «الجبرتي الكبير» حول صناعة الإنسان المسلم المعاصر، واستجمعت خيوطها لتنسج ثوبها الكامل فى الطرح الذي قدمه الشهيد «حسن البنا» عندما قرر تنظيرًا، وربَّى أتباعه تطبيقًا على المباديء التالية:

- سلامة العقيدة (سليم العقيدة)
- صحة العبادة (صحيح العبادة)
- ثقافة الفكر (مثقف الفكر)
- تنظيم الشئون (منظم في شئونه)
- قدرة الكسب (قادر على الكسب)
- قوة البدن (قوي البدن)
- متانة الخلق (متين الخلق)

وبهذه المنظومة ظهرت أجيال مسلمة احتفظت بجذوة الإسلام حية في الضمير والوجدان والعقل المعاصر.
ومخطئٌ من يتصور أن الربيع العربي المعاصر الذي تَعيش بداياته عدد من الدول العربية والإسلامية المحورية مع كل مشكلاته - كان بمعزل عن جهاد المجددين الإسلاميين المعاصرين في ميدان صناعة الإنسان المسلم المعاصر، احتفظ بالإسلام في النفوس على الرغم من عمليات التشويه والتدويخ المتتابعة التي توجهت نحو هذا الدين العظيم في العصر الحديث.
المنارة الثانية: تحرير الأوطان
للوطن في التصور الإسلامي عمومًا، وفي التصور الإسلامي المعاصر على وجه خاص منزلة رفيعة على عكس ما يشيعه خصوم الحركة الإسلامية.
وهي منزلة تأسست في فكر المجددين المعاصرين من مصادر أساسية ثلاثة هي:
نصوص الذكر الحكيم.
ونصوص السنة المطهرة، وفعل رسول الله ﷺ.

وأدبيات أعلام الفكر الإسلامي على امتداد التاريخ تجلى في فقه كثير من الفقهاء الذين رفضوا التخلي عن الأرض والدفاع عنها والمرابطة فيها.
لقد كان عجيبًا أن يقف كثير منهم أمام قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ (سورة النساء 4/66) فيرون فيه تسوية بين الحياة والبقاء في الأوطان، أو بين الموت والقتل والإخراج أو الطرد منها.
وقد تجلى في فكر الإسلاميين عمومًا باستثناءات نادرة تولى الرد عليها علماء الإسلام أنفسهم - مجموعةُ علامات تتعلق بأصل جامع من أصول تجديد الدين في العصر الحديث فيما يتعلق بمحور مركزي من جهاد التجديديين يتعلق بتحرير الوطن يمكن إجمالها فيما يلي:
أولًا: استعادة ثقافة التسوية بين الحياة في الأوطان والحياة الحقيقية، وهو ما يعني أن الطرد أو النفى أو الإخراج يتساوى مع قتل النفس وفقدان الحياة، وهو بعض ما فهمه عدد من المجددين من آية سورة النساء السابق ذكرها هنا.
ثانيًا: اعتبار حمل السلاح دفاعًا عنه ضد أعدائه، أو استرداده من أيدي محتليه– من أوجب الواجبات، ومن أقدس الفرائض، وهو ما يتضح في تفسير «سيد قطب» لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا ﴾ (سورة البقرة 2/246) حيث قرر أن الدفاع عن الأرض والوطن واجب بالمعنى الشرعي وعلامة على يقظة الإيمان في النفوس كذلك.
ثالثًا: الانخراط العملي في حركات تحرير الأوطان من ظلم الاحتلال في العصر الحديث، فالتاريخ يشهد أن عبء طرد الغزاة المعاصرين لبلادنا وقع ابتداءً وبدرجة عظيمة على عاتق المجددين الإسلاميين عمومًا، ومن تبعهم من أبناء الحركات الإسلامية التي اعتنوا بها، وأرجو مراجعة أسماء من مثل: البشير الإبراهيمي، والسنوسي، والمهدي، وحسن البنا، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وغيرهم، وهو الأمر الذي يؤكد أن عملية تجديد الدين في هذا المحور المهم لم يقف عند حدود التنظير العلمي، وإنما تجاوزه إلى الحركة الواقعية على الأرض، لقد دفع كثير من المجددين المعاصرين ثمنًا باهظًا وحقيقيًا في سبيل تحرير أوطانهم، فنُفيَ وشُرّد وطُورد عدد كبير منهم، وسُجن وعُذب وقُتل عدد آخر.
رابعًا: إعادة الاحتفاء بالروابط العاطفية بالأوطان
لقد تجلى في قراءات المجددين للسيرة النبوية وحركة الصحابة بالدين حفاوة ظاهرة بما يصب في باب الارتباط العاطفي والوجداني بالأوطان، لقد برزت روايات تنشق الصحابة تراب مكة المكرمة ساعةَ منَّ الله سبحانه عليهم بفتحها، وبرزت روايات بكاء النبي ﷺ في وداعه مكة المكرمة وهو يخرج منها مهاجرًا، وبرزت روايات حنين الصحابة إلى بقاع مكة المكرمة، وتسليهم بذكر الأشعار التي تحتضن هذه الأسماء من مثل:
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنـيس ولـم يـسـمـر بمكة سامر
وما كانت تفعله في قلوب سامعيها، من اضطراب ووجيب!
خامسًا: ويبقى الوطن مع تطور مفهوم الجنسية
لقد تطور مفهوم الجنسية في الفكر الإسلامي، وظل لفترة طويلة من تاريخ الإسلام قرين الارتباط به، حتى غدت كل أرض الإسلام وطنًا لكل مسلم، وهو ما يؤكده ما كان يدوَّن فى خانة الجنسية في بطاقات المواطنين؛ حيث كان يكتب كلمة (مسلم).

وتضييق مفهوم الجنسية ليرتبط بالبقاع الجغرافية مفهوم حادث بعد سقوط الخلافة العثمانية، وتقسيم العالم الإسلامي، وترسيم الحدود وفقًا لخطة الاستعمار المعاصر.
ومع ذلك الارتباط الإقليمي المتأسس على حدود جغرافية وأبعاد قومية– ظل الارتباط بالوطن والدفاع عنه وافتداؤه هو الأساس الفاعل في فكر المجددين الإسلاميين المعاصرين.
وبدا ذلك واضحًا، يقول «حسن البنا» في رسالة (دعوتنا في طور جديد):» إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة من الأرض نبتنا فيها ونشأنا عليها» والرجل كما هو واضح - وهو حصاد تراكم وتجسد عنده من عمل رجالات التجديد– يعرف قيمة الوطن بمعناه الضيق بما هو أرض جغرافية فُرِض على الإنسان قدَرًا الارتباط به، ويتمثل محددات هذه القيمة في:
- أنها بقعة كريمة (البعد الحضارى للوطن)
- أنها سبب إنبات الجسم (البعد البيولوجي)
- أنها مستقر النشأة والحياة (البعد الاجتماعي)
ويواصل الرجل مقررًا أن محددات الإيمان الإسلامي تبعث على:
1 - ضرورة الاعتزاز بالوطن.
2 - الإخلاص له.
3 - العمل والجهاد في سبيل تقدمه ورفعته.
4 - الاستمرار والمداومة على حفظ هذه الحقوق له.
لقد نبَّه غير مؤرخ في مقدمتهم «طارق البشري» أن التجديد الإسلامي أمدَّ الجماعة الوطنية بمدد وافر في رحلة البحث عن الاستقلال الوطني.
إن تحرر الأوطان من الاستعمار الأجنبي الذي تم لكل شعوب العالم العربي، وتحرر الأوطان من الاحتلال الوطني الذي بدأت أولى فصوله في مصر وتونس وليبيا ثمرة من ثمارات تجديد الدين في العصر الحديث.
المنارة الثالثة: مقاومة الاستبداد والطغيان:
يقرر تاريخ المجددين المعاصرين أن كثيرًا منهم صنفوا معارضين لأنظمة الحكم التي كانت قائمة في أزمنة حركتهم لخدمة الإسلام، ذلك أنهم رأوا في هذه الأنظمة أحد أمرين أو الأمرين مجتمعين:
1 - ركون هذه الأنظمة إلى الاستبداد والطغيان، وظلم شعوبهم والاستئثار بخيرات أوطانهم، وإرهاق كواهل أبناء هذه الأوطان من عموم شعوب الدول العربية والإسلامية.
2 - متابعة هذه الأنظمة للمحتل الغازي، ورعايته، ورعاية مصالحه.
وكان من أثر ذلك انخراط عدد كبير جدًا من مجددي الإسلام في العصر الحديث في مواجهة هذه الأنظمة مما جرَّ عليها متاعب جمة توزعت على الطرد والنفي، أو الاعتقال والسجن، أو القتل في أحيان أخرى.
وتاريخ الأفغاني ومحمد عبده وحسن البنا وعبد الرازق السنهوري وسيد قطب وسعيد النورسي وغيرهم دليل ظاهر على ما نقرره.
وقد كانت حركة كثير منهم كافية في إثبات مواقفهم الإيجابية المؤيدة من ضرورة مواجهة الظالمين المستبدين، وجنح آخرون إلى جانب التنظير، وإثبات الأدلة الشرعية على مواقفهم الحركية في مواجهة الاستبداد والطغيان، فاستشهد محمد عبده بخروج الحسن والحسين والزبير على معاوية بن

أبى سفيان، وعلى يزيد بن معاوية وعلى عدد من خلفاء بنى أمية، على صحة كل حركات مواجهة الطغيان والاستبداد.
وطور حسن البنا هذا التنظير فقرر أن الثورة قد تكون طريقًا للتغيير حين لا يجدي غيرها، صحيح أنه اختار الطريق الطويل وهو تربية أبناء الأمة، لكنه نظريًا وعمليًا اشترك هو وجماعته في مقاومة أشكال متنوعة من الاستبداد والظلم والطغيان.
وتجمع من جهاد كثير من مجددي الإسلام المعاصرين عدد من الأدلة التي تدعم قضية مقاومة طغيان الطغاة يمكن تمثلها فيما يلي:
1 - الأصل في الأشياء الإباحة، وروح الشريعة العامة التي تتراجع بالظلم، وتنعى على الظالمين، وتشنّع عليهم، وتبالغ في ذَمّهم.
2 - مواجهة الاستبداد من أجل أنواع الجهاد وأعظمه، وتزكية السنة المطهرة لفعل المقاومين في مثل:
«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»
تقرير رسول الله ﷺ لمن واجه مسيلمة بكفره فقتله بقوله « طوبى له» في مقابل سكوته على من وارى، ولم يعالن مسيلمة بفساد موقفه.
ممارسات عصر النبوة في تقبل مطالبات أصحاب الحقوق من دون النظر إلى الأساليب ولو كانت غليظة، تعليق رسول الله ﷺ قائلًا:«إن لصاحب الحق مقالًا»
ممارسات عصر الراشدين الذين سمعوا إلى آحاد الرعية، وهم يهددون بحمل السلاح لو لم يسر الخليفة في الناس بالعدل، ومثاله قول القائل:«لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا»
استمرار ممارسات عصور الإسلام المختلفة وتصدّر علماء الجامعات الإسلامية العريقة كالأزهر وغيره أعمال مواجهة الاستبداد في عصورهم المختلفة.
وجود نصوص تدعم فكرة التحرك لمواجهة الظلم والاستبداد والتضييق على الناس، ومنه حديث إسلام عمر رضى الله عنه حيث جاء فيه:» لما أسلم عمر بن الخطاب ودخل دار الأرقم بن أبي الأرقم معلنًا الشهادتين، قال رسول الله: ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم، قال فقلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجنا في صفين (مثنى صف) حمزة في أحدهما وأنا (أي عمر) في الآخر، له كديد ككديد الطحين (أي صوت مرتفع صاخب) حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق».
ولعل أهم الأصوات في هذا السياق كان هو صوت «عبد الرحمن الكواكبي» الذي فحص مسألة الاستبداد في كتابه العلامة (طبائع الاستبداد)، يقول الدكتور «محمد عمارة» في دراسته الافتتاحية بين يدي الأعمال الكاملة (دار الشروق ص2ص174):«كما أننا نبصر في كثير من الصفحات التي حررها «الكواكبي» جهدًا دائبًا للإعداد للثورة، عملًا متواصلًا لتهيئة الجو لقيامها، فهو يريد أن يشجع الناس على مطاولة المستبدين والانقضاض عليهم.. ويستحث الناس ويدفعهم إلى التحرك للانقضاض على المستبد عندما يقول:» إن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه؛ لأن خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشيءٌ عن جهل، وخوفه من انتقام بحق، وخوفهم عن توهم التخاذل، وخوفه من فقد حياته و سلطانه، وخوفهم من لقيمات من النبات».

وفي نص الكواكبي معرفة عميقة مؤسَّسة على معطيات علم النفس وعلم الاجتماع توشك أن تكون قواعد مستقرة.
ويدخل الكواكبي وغيره في بعث روح المقاومة في نفوس الشعوب من مدخل معالجة أسباب الفتور والركون والدعة في آحاد الأمة، فيقرر على ما التقطه الدكتور «محمد عمارة» أن مقاومة ما يلي في النفوس سيسهم في بعث روح جديدة في الأمة تحملها على إزاحة المستبدين، وهذه الأسباب هي:
1 - عقيدة الجبر والزهد المفضية إلى التصوف السلبي.
2 - انعدام التنظيمات وفقدان الاجتماعات والمفاوضات.
3 - الإغراق في الشهوات الحسية.
4 - اختلال التوازن بين الدنيا والآخرة.
وهذه الأربعة وجدت مسارات موازية تسير في اتجاه محوها والقضاء عليها، فقامت حركات المجددين المعاصرين تقاوم في أنفس المسلمين المعاصرين ما يلي:
رفض عقيدة الجبر والزهد المفضية إلى التصوف السلبي بإعادة إحياء مفاهيم التوحيد وفق المنهج النبوي (محمد بن عبدالوهاب وحسن البنا)
السعي إلى إيجاد تنظيمات تعمل للفكرة الإسلامية (الكواكبي/ حسن البنا)
إعادة الاعتبار للجانب الروحي في مقابلة الإغراق في الشهوات المادية (سعيد النورسي)
إعادة الاعتبار للتوازن بين الدنيا والآخرة (فكرة الدين الشامل في فكر حسن البنا).
المنارة الرابعة: إعادة الاعتبار لفقه العمران:
جاء الإسلام فظهرت منذ بدايات تأسيسه للدولة عنايته البالغة بإقامة المؤسسات الجارية، وهو ما ظهر من الحرص على افتتاح الوجود في المدينة المنورة ببناء المسجد الذي كان أكثر من مجرد مسجد لإقامة الصلوات؛ حيث استثمر المسجد مكانًا للعلاقات مع الكيانات الخارجية، ميدانًا للتدريب القتالي، ومجلسًا نيابيًا للتشاور فيما يأزم الدولة الإسلامية الوليدة في ذلك العصر النابه الرشيد، ومدرسة تخرج منها أعاظم العلماء والفقهاء، ومؤسسة إيواء آوت وحَمَت طائفة من فقراء المجتمع.. إلخ.
وجاء العصر الحديث فأعاد عدد من المصلحين والمجددين الاعتبار لفقه العمران، والعناية بالمؤسسات الحضارية، وابتعثت البعثات لتحصيل علوم الحضارة المختلفة، وكان هذا التوجه عملًا راشدًا بأثر ما أشاعه أمثال «الجبرتي الكبير» مجدد عصره من عناية بعلوم الميكانيكا والمخترعات الصناعية.
ومن أجل ذلك وبتأثير من جهود المجددين المعاصرين تنامى ظهور المؤسسات الحضارية في الصور التالية:
1. إنشاء الجامعات في البلدان العربية المختلفة، على أثر من دعوات التجديد التي أرادت إعادة مجد الحضارة الإسلامية في عصور قوتها ونهضتها، وكان قيام جامعة القاهرة (الجامعة الأهلية القديمة) أثرًا من آثار تنامي التأثير الذي أحدثه «الأفغاني» و«محمد عبده» و«رشيد رضا» في المجتمع المصري.
2. إنشاء خطوط السكك الحديدية الرابطة بين دول العالم العربي، وكان قطار الشرق، أو قطار الحجاز القديم، واحدًا من المشروعات التي تأسست بسببٍ من الرعاية لفكرة الجامعة الإسلامية

الموحدة لأقطار الوطن العربي والإسلامي.
3. التوسع في تأسيس جمعيات المجتمع المدني أو الجمعيات الأهلية للشراكة في ترقية المجتمعات العربية، ولعل تأسيس «الأفغاني» و «محمد عبده» لبعض الجمعيات في باريس دليل على ما نقرره بعدما حيل بينهما وبين العمل الأهلي في مصر.
4. التوسع في إنشاء الصحف والمطابع إيمانًا بأن الوعي المؤسس على العلم هو أسرع طريق لتحقيق الرقي والنهضة.
لقد آمن المجددون والمعاصرون بقدرة الإسلام الذاتية إلى استعادة القدرة على قيادة الحياة، فقرروا بعثه من جديد، وما تزال آثار تجديدهم فاعلة إلى الآن.

الفصل الثاني
تأملات في قصار السور:
نحو استنباط منهجيات كلية فاعلة

أولًا:
الطريق إلى سلام العالم!
تأملات في سورة القدر

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (سورة القدر 97/1 - 5).

(1) مدخل:

إن القول بأن سلام العالم واحد من مقاصد الكتاب العزيز العليا يمثل حقيقة بالغة السطوع، لا تخطئها العين.

إن مراجعة الكتاب العزيز كاشفة عن هيمنة إرادة تحقيق سلام العالم على نصوصه، وهو ما تكشف عنه كثافة ورود اللفظة المحورية(السلام) في آياته الكثيرة المتوزعة على قسمي القرآن الكريم: المكي والمدني معًا.

إن السلام خلوص من الآفات جميعًا في ذات بدن الإنسان ونفسه وعقله ودينه، وهو التخلص من المكروه بكل أنواعه وصنوفه، وهو الصلح وقتل الشر في الوجود، واستنبات الخير في العالم.

يقول تعالى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ (سورة يونس 10/25)، ويعلق الماوردي في تفسيره النكت والعيون(تحقيق خضر محمد خضر، دار الصفوة، القاهرة، ووزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، سنة 1993م، (2/210)، " يعني: الجنة. وفي تسميتها دار السلام وجهان: (أحدهما) لأن السلام هو الله، والجنة داره، (الثاني) لأنها دار السلامة من كل آفة". وهذه آية بالغة الوضوح عن مقصد الكتاب العزيز في إرادة تحقيق سلام العالم.

وسورة القدر نص جليل في بيان الطريق إلى سلام العالم!

(2) معجم سورة القدر

تتأسس هذه السورة الجليلة على بعض الكلمات المفاتيح التي شكَّلت بنيتها الدلالية الأساسية، ويدور في فلكها بعض آخر من الكلمات التي تعين على هذا التأسيس.

1. ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ الفعل أنزل فعل متعدٍ، يحمل دلالة العلو، ودلالة الاستيعاب والاستغراق، إذ يقول أهل اللغة أن الإنزال :" حط الشيء من العلو" كما جاء في نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي (تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م، (ص: 127).

والكلمة محتملة لمعاني القول، والبسط والإنزال نفسه. وهو مما يدور في فلك هذه المعاني معاني الضيافة؛ إذ النزيل ضيف. وهو ما يحمل على العناية بإكرام الكتاب العزيز عمومًا؛ لأنه ضيف، وللضيف الإكرام حقًا وواجبًا!

1. ﴿الْقَدْر﴾ كلمة السورة، وعنوانها، ومفتاح أساسي لفهمها، وهي في هذا السياق مثال عبقري للاستجابة لمفهوم تزاحم المعاني وتقديره في الكتاب العزيز، فالقدر بتحكيم الاشتقاق تعني الشرف والمنزلة والمكانة الرفيعة السامية. وتعني التضييق، وسد المنافذ، وتعني التقدير وتوزيع الأجور وهي جميعًا دلالات مقصودة هنا؛ ذلك أن ليلة القدر ليلة ذات شرف ومنزلة في نفسها، والشرف مواهب توهب، وهي شرف لمن تعلق بها وقدَّرها، ترقى بمنزلته ومكانته. وليلة القدر ليلة تضيق

فيها منافذ الشر، وتُغَلُّ المردة، الشياطين، وتفيض فيها الرحمة الربانية على الخلق، ليلة القدر ليلة تقدر فيها أقدار الخلق، وأرزاقهم، ومنازلهم.

2. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ من القواعد الكلية فى التفسير قوله إن كل" ما أدراه" في القرآن فقد أدراه، والدراية معرفة علم وإخبار، وهو دال على تحقق اليقين، وهو سر استعماله هنا، ليتقرر في الإجابة بعد حصول اليقين من صاحب التنزيل الذي يخبر ويعلم.

3. ﴿ خَيْرٌ﴾ اسم تفضيل متحول من أفعل إلى فعل بعد سقوط همزته. وهو اسم جامع دال على كل طيب ممدوح، مرغوب فيه، وهو الكرم. وهو في الكتاب العزيز متفجر الدلالات مكتنز المعاني، فهو الإيمان، والإسلام، والمال، والعافية، والأجر، والفضل، والطعام، والظفر، والنفع، والصلاح، والقوة، والقدرة، والإصلاح، والصيانة، والحسن، وكل ما هو ضد الشر، وهذه المعاني التي ذكرها علماء الوجوه والنظائر، كما في نزهة الأعين النواظر (ص:285 - 288) مراده جميعًا هنا. وهو ما يعني أن الإخبار عن ليلة القدر في مواجهة:"ألف شهر" يتضمن كل هذه المعاني التي ترقى بمكانتها ومنزلتها.

4. ﴿أَلْفِ شَهْرٍ﴾ تعني على ظاهر أمرها: ألف شهر، والأعداد في غير باب الأحكام تطلق يراد بها التكثير، والقصد إلى" ألف" من الأعداد لأنه أعلى ما كانوا يتصورونه منها. ومن ثم يكون أمر ليلة القدر على الظاهر خير من عمر الإنسان كله وإن طال فتجاوز الثمانين عامًا، أو هي خير من الزمان كله؛ لأن ألف الشهر، تعبير عددي يقصد إلى بيان الكثرة، واستعظامها. واستعمل"الشهر" لمناسبة شهر رمضان الذي فيه الليلة المباركة، وفرارًا من " السنة" وما فيها من معاني الشدة والجدب، وتحقيقًا لانسجام الفاصلة العزيزة في السورة الكريمة.

5. ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ كلمات هذه الآية جميعًا تفيض بالنور، لقد كان اختيار الفعل تنزل ببنيته الصرفية الدالة على الاستمرار، وعدم التوقف والكثافة دالًا جدًّا في هذا السياق.

والفعل مضارع، ومشدّد العين، ولازم، وهو ما يعني الاستمرار والكثرة، والكثافة، ومحبة النزول ممن يتنزل.

والملائكة جمع يدعم ما في التنزل من كثافة وازدياد، وهم جنس مطيع، محب لما يأتي من الأعمال، رمز للنور والرحمة معًا.

﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾: الروح هي سرُّ الوجود والحياة، ومادة حفظه، وهي الرحمة. وهي في هذا الموضع محتملة هذه المعاني جميعًا، وهي كذلك في هذا الموضع دالة على جبريل، وفي ذلك تشريف لعالم الإنسانية المؤمنة، وتحقيق لمنازل المؤمنين ممن لم يروا أو يشهدوا زمان التنزيل، وإثبات لرسومهم.

ولعل في استعمال ضمير(ها) في: فيها من دون: " هن" مع جوازها دفعًا لتوهم تصور دعم أنوثة الملائكة، نفي احتمال كون الملائكة بناتًا وإناثًا.

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ : الإذن أمر، والإذن: السماح والموافقة، وهذه المعاني لازمة جميعًا هنا، فالإذن أمر، لأنه لم يكن للملائكة أن ينزلوا من دون أمر منه سبحانه، والإذن: السماح، بحكم الفعل اللازم.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ الأمر في الآية، الرزق والأجل، وقد قرئت: (امرئ) وهذه القراءة تثبت أن الملائكة وجبريل يسلمون على كل امريءٍ مسلم، كما تأولها بعض التابعين.

﴿ سَلَامٌ ﴾ هذه هي الكلمة الثانية المفتاح في هذه السورة الجليلة المباركة، والسلام مادة خام، وتكثيف عميق لمعاني البراءة من الشرور، والتجسد معاني الخير والبركة، وللخلوص من الآفات والمعايب

والنقص، والأمراض. وبهذا تكون ليلة القدر هي التجسد الحي لطريق سلام العالم بالمعاني المادية والروحية جميعًا.

3 - تراكيب السورة:

يقع تحليل التراكيب في مرحلة تالية لتحليل المعجم، فيدعمه، ويحسم مشكلات الاحتمالات فيه، ويزيد من عطائه.

1 - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أكد الكتاب العزيز قضية الإنزال؛ لجلالها وليقطع مادة الشك حول دعوى تأليف القرآن الكريم، وليقرر علويته وتساميه، وانقطاعه عن الصناعة البشرية. وجاء اسم إن ﴿نا﴾ وخبرها جملة أنزلناه مشمولين بدلالة الجمعية تعظيمًا للمنزل من جانب، إذ ضمير المتكلمين من جهة المفرد تعظيم، وللدلالة على استجابة الملائكة لأمر الله تعالى بإنزال الذكر الحكيم. وهو بعض من خصائص حديث الله عن نفسه في الكتاب العزيز.

والهاء في جملة الخبر مفعول به يفسره القرآن الكريم، واستعمل ضميرًا لذيوع أمر الكتاب العزيز وانتشاره والعلم به. ومجيء الخبر جملة فعلها ماض توكيدًا، ودلالة على تمدد الإنزال وتنوعه.

1 - ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وشبه الجملة من الجار والمجرور المُعرَّفة بالإضافة متعلق بالفعل ينير زمان التنزل إن إجمالًا أو ابتداء تنزله منجَّمًا مفرقًا على مدة البعثة الشريفة. إن اختيار الليل ظرفًا للتنزل الكريم رحمة؛ إذ الليل ألطف من النهار، والوحي ثقيل الوطأة، والليل أرجى لانفتاح النفس، واستجابة الضمير، وقد استقر في التاريخ الاجتماعي أن النهارات للمعاش، والليالي مخازن للتزكية!

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ جملة مركبة استفهامية، والاستفهام فيها للتنبيه لاستقبال الجواب اليقيني؛ لأن الدراية معرفة متقنة!

وهو نمط من الاستفهامات دال على تعظيم المسئول عنه، ورفعته، وإعلاء شأنه.

3. ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ هذه جملة جواب مثالية ذكر فيها المبتدأ المعرفة ليلة القدر مع تقدمه في السؤال تشريفًا للمذكور، ولذة بتكرره، ودفعًا لتوهم الخلط في تقديره إن جاء مضمرًا!

﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ خبر منعوت بشبه الجملة تخصيصًا وبيانًا، والجملة الاسمية جاءت خالية من قرائن الزمان لينفتح حكمها على امتداد الزمان، وليبقى أبدًا، وهو نوع من مثيرات الأمل والتفاؤل واستمرار التشريف.

4 - ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ جملة جيدة طويلة صالحة لأن تكون خبرًا بعد خبر، وفصلت عن سابقتها للارتقاء بقضية تنزل الملائكة، والفعل تنزل مضارع لازم، والملائكة فاعله.

والروح فيها محتملة للعطف على الملائكة فتكون من جملة المتنزلين، وفيها شبه جملة متعلقة بالفعل، متممة لمعناه، ومحتملة للاستئناف فتكون الروح مبتدأ وفيها خبره، وهي مرادان ليحققا استيعابًا لمعان مجتمعة، تقرر تنزل الروح، وتقرر تعظيم خبر كونه في جملة الملائكة تشريفًا لليلة، وللذين يحيون الليلة من المؤمنين على الزمان.

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ شبه جملة من جار هو الباء، ومجرور هو إذن متعلق بالفعل ﴿ تَنَزَّلُ﴾ أو شبه جملة متعلق بمحذوف حال من فاعل الفعل تنزل وهما معنيان مرادان: أحدهما يتمم معنى الفعل، والآخر يوحي بأن التنزل مؤقت مرتهن بالليلة المباركة، ثم ينقطع!

﴿سَلَامٌ هِيَ ﴾ هي سلام خبر مقدم لبيان منزلته، وهي مبتدأ مؤخر يفسره ليلة القدر. إن اختيار الخبر مصدرًا، نكرة مع العلم بأن الخبر هو عن المبتدأ في المعنى، أو هو هو على حد تعبير الزجاجي

في جملة تفتح الباب لتفهم أن الليلة المباركة سالمة، ومسلمة، وسلامة، وتسليم، ونعيم للمؤمنين.
﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ شبه جملة متعلق بسلام بيانًا لمدة استمراره.
إن هذا التعالق العجيب بين جزئيات تراكيب هذه السورة الجليلة كاشف عن أن سلام العالم متحقق بالارتباط بما تنزل في هذه الليلة، وبما قرره في وجود الناس!
4 - عطاءات السورة
لقد نهض المعجم والنحو ببيان الكثير من المعاني المفردة في السورة الكريمة القصيرة وثمة قضايا كلية تفيض بعطائها السورة، هي كما يلي:
أولًا: تلح الآيات الكريمة على أن الارتباط بالمنهج المتسامي المتعالي هو الطريق لسلام العالم، وهو التعالي المستفاد من الدلالة المعجمية والصرفية والنحوية لفعل الإنزال المتعدي.
وظهرت قضية الإنزال متعاظمة عن الإسناد الفعلي للضمير التعظيمي، المؤكد؛ ليتقرر في الوجدان المسلم عظمة ما كان في هذه الليلة العظيمة الشريفة.
ثانيًا: كشف بناء السورة الكريمة عن تقدير عجيب لليلة القدر، وحياطة أمرها بالبيان المستفيض الذي لا يعرف حذفًا على مستوى البناء النحوي، منعًا من مخاطر التقدير للمحذوف، وهو ما ظهر من التكرار، ومن الإجابات المثالية التي سيقت على الاستفهامات المصممة بأفعال اليقين.
ثالثًا: كشف بناء السورة كذلك عن نوع تحقيق للتلذذ بذكر ليلة القدر، فقد تكرر ذكرها ثلاث مرات، مع ما في ذلك من تنبيه إلي فضيلة الليل بما هو مصنع التزكية الضابطة لحركة العمران وطلب المعاش في النهار!
رابعًا: حرصت السورة على دعم الحقائق الاعتقاد في بنائها النحوي عندما استعملت الضمير(ها) بديلًا عن الضمير(هن) العائد على الملائكة منعًا عن الاقتراب من شبهة تصور الملائكة بناتًا أو إناثًا.
ومبدأ دفع التوهم مبدأ علوي حاكم في البناء اللغوي للكتاب العزيز معجميًا ونحويًا.
خامسًا: ظهر التنوع الإعرابي لجمل السورة الكريمة، وهو طريق عبقرية لاستيعاب تزاحم المعاني الواردة على السورة.
سادسًا: كشف الدوران حول الكلمتين المفتاحين: القدر/ وسلام عن نوع من الترابط الحميم بينهما، بحيث يمكننا أن نقرر أن بينهما ترادفًا سياقيًا، فليلة القدر هي مصنع السلام العام، والسلامة من الآفات، وصفاء النفس، وارتياح الروح، وأمن العالم.
إن هذه السورة البديعة تكشف عن الخير المتكرر المستمر الذي يرد الحياة إلى المنهج الضابط لحركتها في الوجود الإنساني.
القرآن ما يزال قائمًا، والملائكة الذين نزلوا به زمان البعثة ينزلون ليشهدوا الذين يرتبطون به من المعاصرين، ويحبونهم.
والله من بعد ذلك كله يعد، ووعده الصدق، بالسلام لأولئك الذين يحيون في ظل منهجه، ويسعون إلى استعادة النور الذي عمَّر الوجود مع فجر بعثة النبي الخاتم، ﷺ.

ثانيًا:
الطريق إلي نجاة العالم!
تأملات في سورة العصر

﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر103/1 - 3)

(1) مدخل

مثل الكتاب العزيز منذ نزول الوحي الكريم طريقًا لنجاة العالم، وهو الأمر الذي عبر عنه بمدونة واسعة التنوع لمشتقات الجذر اللغوي(ن/ج/و)، مستغرقة التوزع على زمان التنزيل جميعًا، مكية ومدنية معًا، مستوعبة للأفراد والجماعات والأمم ما داموا مؤمنين، متفقة على ماضي التاريخ ومستقبله معًا.

يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة يونس 10/103)، ويقول عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنبياء 21/88)، وهو طريق لتحقق معاني النجاة جميعًا، خلاصًا من الضرب وسلامته من الهلاك، وارتفاعًا وترقِّيًا في الوجود على ما يقرر أصحاب الوجوه والنظائر (انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت سنة 1987م؛ ص:582/281).

وأصبح الارتباط بالكتاب العزيز طريقًا مانعًا الشقاء حقيقة يقينية واضحة يقول تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ (سورة طه 20/2)؛ وهو ما يعني أن فحص الكتاب الكريم، والدوران معه حيث يدور هو الطريق لتحقيق الارتياح!

(2) معجم سورة العصر:

يمثل المعجم خطوة محورية في برامج قراءة النصوص وتحليلها، والحق أن معجم الكتاب العزيز نمط فريد في اكتنازه، وطاقته المتوهجة المناسبة لتزاحم المعاني، وهو المبدأ الذي يحكم بناء الكتاب الكريم.

1 - العصر كلمة تعني الزمان الممتد، أى هي الدهر، وربما صح أن تكون ما يسبق الغروب، وربما صح أن يكون المعنى: صلاة العصر، أو عصر النبي ﷺ: وهي جميعًا مراده استيعابًا بالتزاحم المعاني، فإن إرادة بيان أهمية هذه الأربعة معاني المتداخلة غير مستنكر، ولا مستبعد.

غير أن إرادة معنى الزمان الدهر يصبح الأرجح بتحكيم السياق، أو قرائن ما بعده في نظم السورة الكريمة.

وتحليل العصر في ضوء قوائم الاستبدال المعجمي كاشف عن تحكيم مبدأ مهيمن في بناء الكتاب العزيز، هو دفع التوهم، فقد ترادف العصر والدهر ترادفًا تامًّا، وتطابقًا، كما يقال: وزنًا ومعنًى، غير أن إيثار العصر كان دفعًا لتوهم إرادة تعظيم الدهر، وقد جاء في الكتاب العزيز ما يوحي بتأخير رتبته، وهو الأمر الذي يمنع من مادة الكتاب العزيز من اتهامه بشبهة التناقض الظاهري.

إن الزمان خزينة النجاة، وهو ما كان سببًا في العناية به.

2 - ﴿الإنسَانُ﴾ إن أظهر ما يكشف عنه استعمال هذه الكلمة من معنى هو: جنس الإنسانية، وتصبح :"ال" هنا للجنس المفيد للاستغراق والعموم.

3 - والكلمة صالحة من أي جانبي أصل اشتقاقها حملت، فالإنسانية خاسرة إن استجابت للّهو المفضي إلى الهلاك، وهي الدلالة المستكنة في جذر (أ/ن/س)، والإنسانية خاسرة إن استنامت للنسيان، وذهلت عن مواريث الوحي، وهو المعنى الكامن في الجذر(ن/س/ي)!
﴿خُسْرٍ﴾ الخسر أصل فى النقصان، وعدم الزيادة، وهي فى هذا السياق يمكن أن تتضمن معاني: الشر والهلاك، والضياع، والتردي، والمآل المذموم. وهذه الصيغة الاسمية (فُعْل) بضم الفاء وسكون العين تحمل لديمومة والاستقرار، بما يزيد في النذارة والتحذير.
3 - ﴿آمَنُوا﴾ الإيمان فى الكتاب العزيز محور، وقطب وهو بداية النجاة، بعد تحصيل الإقرار باللسان وانعقاد القلب عليه، وطمأنينة القلب إلى صدق ما حصل الإقرار به، والعمل بمقتضى ما كان مما صدق به إقرارًا واعتقادًا، على حد تعبير ابن الجوزى في نزهة الأعين(ص:145).
وفحص سياقات ورود هذه اللفظة المفتاح كاشف عن المعاني التالية:
1 - التصديق.
ب - الإقرار باللسان.
ج - الاعتقاد بالقلب والجنان.
د - التوحيد.
هـ - الإيمان الشرعي الجامع لأركان ثلاثة: إقرار لساني/ واعتقاد قلبي/ وعمل جارحي!
و - الصلاة.
ز - الدعاء.
ومن هنا فإن بداية تحصيل طريق النجاة الكامن في تحصيل هذه المعاني في كل جيل على امتداد الزمان.
﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: إن قيمة الفعل الكلامي، والطمأنينة القلبية في الترجمة العملية في الواقع، وهو بعض ما منح التصور الإسلامي في الحياة قوة أو طاقة إيجابية مقتحمة!
إن عمل الصالحات، جنس الخيرات باب لا ينفصل عن مفهوم الإيمان.
﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ هذا الفعل من وزن التفاعل، وهو وزن دالٌّ على المشاركة، يتجاوز حدود الفرد إلى نطاق الجمعي، ويترقى نحو التذكير لمحاربة النسيان، بما هي أصل في معنى الإنسان على من يرى اشتقاقه من الجذر (ن/س/ي).
وهذا الفعل يفتح الباب أمام التنمية المعرفية، وترقية التعليم، والنهوض بمسئولية الإعلام، استجابة لطبيعة الإنسان، وتعاطفًا معها.
﴿بِالْحَقّ﴾ والحق هو الصواب والحكمة بإطلاق، وهو التوحيد والكتاب العزيز، وهو الله تعالى وما يصدر عنه في سياقات وروده في الذكر الحكيم، وهو الإسلام، وهو العدل والصدق، وإيضاح الحلال من الحرام، وكل ما هو ضد الباطل.
﴿بِالصَّبْرِ ﴾ إن الصبر فى المعجمية العربية حمل النفس على التحمل، وحبسها عن الجزع، وهو في الذكر الحكيم بمعناه اللغوي، وبمعنى الصوم، وبمعنى الجرأة والقوة والصلابة في ميادين الحق.
4 - إعراب السورة، أو تحليل التراكيب.
5 - ﴿وَالْعَصْرِ﴾ الواو حرف جر وقسم، والعصر: مقسم به بعد الواو، والافتتاح بالقسم بيان عن خطر قضية الوقف، وتنبيه إلى جلالها، ومركزيتها في حياة الإنسان.

والأصل أن يقف المجتمع العلمي أمام أقسام القرآن بالفحص والدراسة استملاءً لمكامن الخطر فيها. والقسم هنا هو الذي دفع استعمال الدهر، منعًا عن توهم إرادة تعظيمه خروجًا من فتح شبهة التناقض في الكتاب العزيز كله.
"إن الإنسان لفي خسر" إن حرف توكيد، والتوكيد في النحو العربي باب واسع تقوية للقضاة، ومنع من حملها على المجاز أو التهويل.
﴿الْإِنسَانَ ﴾: اسم إن منصوب، وهو الطرف الأول في القضية المراد تقويتها، وحملها بعيدًا عن دائرة المجاز أو التهويل.
﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾: اللام مؤكدة، صانعة للتوازن في توزيع معاني التقوية والتوكيد بين طرفي الجملة، في حرف جر يفيد الظرفية، وخسر: اسمها مجرور بها، شبه الجملة: متعلق بمحذوف خبر إن، وهو ما يعني أن قضية الحكم بخسران الإنسانية محاطة من جانبيها بما يخيف، ويبعث على التنبه المفرط، نظرًا لخطر المآلات والنتائج.
وهذا التوزيع لعناصر التوكيد يعكس رحمة الرب سبحانه بالإنسانية، إذ النذارة هي عين الرحمة، والمبالغة في توكيد النذارة مبالغة في الإرشاد إلى الراحة!
وإلا حرف استثناء، وهو هنا حرف أمل وبشرى، يفتح الباب أمام خلق فرصة للنجاة من العموم المرعب الذي يقرر: خسران الإنسانية جميعًا.
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مستثنى، وهو ما يعني أن انفتاح باب النجاة وإن كان قليلًا، مضيقًا بحكم العادة التي تقرر أن المستثنى في الغالب أقل من المستثنى منه - فهو قائم يفتح باب البهجة، ويعين على التماسك في مواجهة طوفان الدمار والخسران المحيط بالعالم.
﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ / وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ / وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ الواو حرف عطف فيها جميعًا.
وعملوا الصالحات الفعل، وفاعل، ومفعول به.
وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، فعل، وفاعل، وجار ومجرور، والجمل جميعًا متعاطفة، لا محل لها من الإعراب، صلة الموصول الذين لا قيام له بغيرها.
وهو ما يعني أن الاستثناء من الخسران لن يتحقق إلا لمن استجمع نفسه أربعة مبادئ كلية، هي:
أولًا: الإيمان.
ثانيًا: عمل الصالحات.
ثالثًا: التواصي بالحق.
رابعًا: التواصي بالصبر.
إن تحليل التراكيب كاشف عن بركان مزلزل لإيقاظ الإنسانية من مصير مرعب جدًّا، ومزعج جدًّا.
4 - عطاءات السورة
1 - ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ربما صح أن نقرر أن الكتاب العزيز في مجمله قصة عظيمة للنذارة التحذير، تأسيسًا على أن النبي ﷺ هو النذير المبين!
ومن هنا يفهم حفاوة الكتاب الكريم بالقسم؛ لفتح الباب أمام العقول والنفوس لتوقي مخاطر النهاية، وفزع القيامة.
وهو مدخل جليل لتثمين الوقت الذي هو بمثابة خزينة الأعمال، وآلة تحصيل ما به يكون الحكم على منجز الإنسان.

إن هذا القسم البديع ربما صح معه أن نلخص الحضارة والحياة معًا بأنها قطار الدقائق والساعات!
وعلى قدر تحميل عرباته بالأعمال تكون النجاة من عدمها.
﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ هذا الجواب الذي وقع بعد جملة القسم، وعبر من جهتين: جهة التمهيد بين يديه بالقسم من الله تعالى، مما يجب معه تقدير خطر القضية التي يدخل إليها بتعظيم آلة الزمان، الذي هو في الحقيقة جزء من هوية الحياة الإنسانية.
والآية من الناحية التركيبية تحيط ركنيها بطاقة عجيبة من عناصر تقوية مدلولها، وهي العناصر المتمثلة فى عناصر التوكيد(إن/اللام).
وجهة استبعاد قرائن الزمان من بنيتها؛ لتجعل حقيقتها باقية على الزمان الممتد، لا تعرف خرمًا، ولا انقطاعًا هو بعض ما يرقى بخطرها، إذ الحكم أصيل، ومستمر، ومستوعب، وعام.
والقضية المحمولة في العبارة تعلن خسران الإنسانية، وهو الخسران المستديم غير المنقطع بدلالة فراغ التركيب من قرائن الزمن، وهو الخسران المستمر بدلالة استعمال ﴿ خُسْرٍ ﴾ غير مشتق لكى تطرد عن ساحتها معاني الانتقال المؤقت!
ولعل البنية الاشتقاقية للإنسان في الآية تحمل في ضميرها مسوغات الحكم بالخسران، وهما سوَّغا الأنس الملهي، واللهو الصانع للحضارات المريضة، والنسيان المذهل عن حقائق التوحيد والتزكية والعمران.
واستعمال في الظرفية، مرعب مؤكد لمعنى الاستغراق الوارد في "ال" التي للجنس من جانب: لقد صورت الآية الإنسانية كرجل غارق في بئر الخسران!
3 - ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ جاءت إلا بابًا مشرعًا يمنح الأمل في النجاة من بئر الخسران، غير أن هذا الباب المفتوح على ساحات النجاة من جحيم الخسران لا ينفتح إلا لمن امتلك مفتاحه.
جاءت إلا لتمثل مفتاحًا لباب الأمل. وجاءت أربعة الجمل المتممة للصلة بمثابة أسنانه التي تعينه على فتح المغلاق الموصد.
وقد انضم إلى "إلا" استعمال المستثنى اسمًا موصولًا مصحوبًا جملة صلته الممتدة الطويلة بالعطف؛ لكى يجعل الأمل باقيًا في الأجيال جميعًا، ممتدًا في الزمان جميعًا، مستوعبًا للمكان جميعًا، لقد تجلت رحمة الله فلم يأت المستثنى اسمًا مشتقًّا، إذ المشتقات متنقلات مؤمنات والله تعالى يريد لباب الأمل أن يشمل الذين حصَّلوا ثمنه على الزمان والمكان.
والناجون هم من حصَّلوا في أنفسهم اطمئنان القلب وانعقاده على حقيقة السماء، ولهج لسانهم بوحيه، وما يأمر به، وتعاونوا على القيام بالحق، وصانوه، وتحملوا في سبيله، ولم يجزعوا، ولم يقنطوا، وفهموا عن الله مراده سبحانه.
إن هذه السورة الجليلة مثال فريد للنصوص المكتملة فى الكتاب العزيز الدالة على واحد من أعظم مقاصده، وهو الدلالة على سبيل نجاة العالم.
الآية منهاج كامل يكشف عن حقيقة الوجود، وصعوبته، ويشرح ما به تكون النجاة، ويعصم طالبيها من مزالق الطريق، بما يحمي عقولهم، ويقي نفوسهم؛ ليبقى الكتاب العزيز دومًا هو الطريق إلى نجاة العالم.

ثالثًا:
تأملات فى سورة الكوثر

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)﴾ (سورة الكوثر 108 /1 - 3).

معجم السور و لغتها

إن أول مفتاح فى طريق تحليل أي نص يكمن فى تأمل معجمه اللغوي، ثم الترقي خطوة أخرى نحو فهم تراكيبه مع إجراءات أخرى كثيرة تتعلق ببنية النص الموسع، وهو هنا النص العزيز كله الذي منه هذه السورة من حيث تحكيم أهدافه الكبرى المعلنة، والسياقات الحاكمة للتعامل معه سواء كانت من داخله أو من خارجه وهو ما ينهض بعبئها تضافر علوم كثيرة جدًّا.

1 - افتتح رب العزة سبحانه السورة بالتوكيد المستفاد من (إنّ) متحدثًا عن نفسه بصيغة الجمع لأمرين هما:

- الدلالة على عظمته سبحانه، وهو الشائع المتداول فى فهم مثل هذا الإسناد.

- و ربما كان هذا الإسناد إلى ضمير (نا) من قبيل نسبة الفعل الذى أمر به وهو الله سبحانه، ومن نفَّذ مراده وهم ملائكته الموكلون بطاعته، وهو الملحوظ فى كثير من آيات النص العزيز فى مثل هذا السياق حيث كانت عادة القرآن التعبير عما يأمر به الله سبحانه وينفذه خلقه بطريق الإسناد إلى الجمع مما تجد له أمثلة في:

﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾(الكهف: 81)

﴿ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾(الأعراف: 57)

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾(الإسراء: 82)

وهو بعض تجليات اسمه الجليل الشاكر.

و استعمال الفعل ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ يدعم بإسناده إلى ضمير المتكلمين ما مر من جانب، ويوحي ولا سيما عند مقارنته بمجموعة من أفعال حقله الدلالي من مثل: وهب/ ومنح بشيءٍ من خصوصية تدور حول إمكان تخصيصه بما يكون من عطاء ورزق مترتب على تعب وكد ومجهود، بمعنى أن الإعطاء لا يكون إلا بعد بذل ممن سيعطى، وهو بعض ما توحي به دلالة الأخذ والتناول فى جذر المادة (ع ط و)، وربما يشهد لذلك قوله ﷺ أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه، وفي الضمير (ك) وإن كان دالًا على النبي ﷺ معنى يتعداه إلى متابعيه بدليل بقاء الأمر فى الآية التالية في الأمة بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ، وإنما كان الأفراد بخطابه لاعتبارات عديدة منها اعتبار مقام النبوة الذي يقضي بكونه مبلغًا، ومنها اعتبار دفع شبهة تكذيب الله سبحانه إن جاء النص بأعطيناكم، وهو غير متصور مع النبي ﷺ فهو الوحيد المأمون بحكم اصطفاء الله سبحانه له من تكذيبه، أو من مظنة تكذيبه.

﴿ الْكَوْثَرَ ﴾: وفي الكوثر دلالات كثيرة جدًّا بلغ بها القرطبي (20/216 - 218) ست عشرة دلالة هي كما يلي)نهر بالجنة/ وحوض النبي ﷺ في الموقف/ والنبوة/ والقرآن/ والإسلام/ وتيسير الإسلام وتخفيف الشرائع/ كثرة الأصحاب والأمة/ والإيثار/ ورفعة الذكر/ ونور في القلب دلَّ على الله سبحانه/ والشفاعة/ والمعجزات/ ولا إله إلا الله محمد رسول الله/ والصلوات)

ورجح القول بأن الكوثر هو النهر والحوض يوم الموقف، لموقع الأثر الصحيح المرويّ عن النبي ﷺ فى تفسيره.
وإن كان لا يمنع، وهو ما سوف نبرهن عليه أن يكون معناه الأمة بشهادة الاشتقاق.
﴿ فَصَلِّ﴾= أمر بإقامة الصلاة المفروضة علينا، وجنح بها غير واحد إلى الأمر بصلاة العيد، عيد الأضحى، بقرينة النحر.
وربما توسع فيها فكانت بمعنى أعبد.
﴿ لِرَبِّكَ﴾= اللام للغاية بمعنى أن على مقيم الصلاة أن يتغيا بها وجه ربه سبحانه.
والتذكير بالرب هنا؛ تنبيهًا لإنعام الله سبحانه وتفضله على خلقه، استجلابًا لمعاني الشكر، وتلطفًا إلى أنفس الناس بالتذكير بالنعم المتوافرة، وهو أمر مفهوم في سياق من كان يتعبد لغير الله.
﴿وَانْحَرْ ﴾= الغالب المتبادر لغة أنه أمر من الذبح، وهو أمر يفهم ذبح الأضاحي يوم الأضحى.
وهو قول يدَّعي أمرين: الاشتقاق من (ن ح ر)، ومناسبة أسباب النزول على من قال إنها نزلت في الحديبية حين منع النبي ﷺ والمسلمون عن مكة المكرمة فأمره الله سبحانه أن يصلي ثم يذبح ما كان يسوقه من الأنعام (البدن) وينصرف.
وهناك من فهم منها أفعالًا متممة لفعل الصلاة، أي اجعل يدك عند نحرك في افتتاح الصلاة برفع اليدين قبالة النحر، أو استقبال المصلي بنحره القبلة. والترتيب مرعيٌّ مستفاد من تركيب الجملة المبدوء بالأمر بالصلاة والمثنى بالنحر، ومن بعض ما صح عنه ﷺ من أنه كان يبدأ يوم الأضحى بالصلاة ثم يثني بالنحر.
﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ الشانئ: المبغض الكاره، والصيغة الصرفية توحي بإمكان تجدد وجود المبغض، إذ المشتقات من نوع اسم الفاعل دالة على التنقل والتوقيت والتجدد، بمعنى أنه ليس حكرًا على زمان واحد معين، وهو ما يدعمه خلو الآية من عناصر زمنية، وهو ما لا يصح معه حصره فى شخص بعينه وقرئ شنئ على صيغة المبالغة (فعِل) واعتماد الصيغة الأولى أولى.
هُوَ= ضمير فصل استعمل فتحقق به ما يسمى بدفع التوهم احتمال الوصف في البتر، أي لولا وجوده لتوهم القارئ لأول وهلة أن الأبتر قد يكون وصفًا للشانيء وينتظر الخبر، وهو غير المراد فجاء الضمير؛ ليقطع هذا الاحتمال، ويصرف المرء إلى أن الأبتر هو خبر الشانيء ومصيره.
هُوَ= المقطوع ذكره من الخبر ماديًا ومعنويًا، فهو من لا ولد له وإن كانت له بنات على بعض استعمال قديم فى العربية، ثم توسع فى استعماله ليشمل المقطوع خيره كذلك، وإن كان الاستنباط له بالمادة.
وتأمل التعريف بأل ربما أوحى باستغراق البتر للشانئين، وربما أوحى بأن الشانئ هو المقطوع حقيقة، ولا مجال لتصور انبتار يدانيه.
وربما كان الاشتقاق على صيغة أفعل من أجل توكيد التفضيل من الدرجة القصوى، بمعنى أن الشانئ هو الأكثر انبتارًا من غير دخول فى مقارنة مع أنواع المنبترين الآخرين.
إعراب النص= تحليله من جهة التراكيب
1 - إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ
إن= حرف توكيد ونصب، والتوكيد وظيفة دلالة المقصود منها تقفي الكلام بالثقة في تحققه والنصب وظيفة نحوية تتطلب اسمًا وخبرًا.

نا= ضمير المتكلمين جاء على التعظيم له سبحانه أو على الحقيقة فى أنه الآمر وملائكته الطائعين هم المنفذون– مبني فى محل نصب اسم إن.
أعطيناك= أعطى= فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بنا الدالة على الفاعلين، والفعل وإن جاء على صيغة الماضى يحتمل الدلالة على الحال والاستقبال، أي هو الذي أعطى سبحانه ومعطي الآن ويعطي بعد الآن، وصوغه على هيئة الماضي إقرارٌ للتحقق اليقيني. الـ نا ضمير مبني في محل رفع فاعل لأعطي والكاف ضمير المخاطب الدال على محمد ﷺ ضمير مبني في محل نصب مفعول به أول لأعطي.
الكوثر= مفعول به ثانٍ لأعطي. وجملة أعطي في محل رفع خبر إن والتقدير معطيك الكوثر، وعَدَل عن التقدير إلى التعبير بالفعل لاستغراق الزمان ماضيًا وحالًا واستقبالًا.
2 -فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ= الفاء حرف يفيد التعقيب أي الترتيب والتسبيب أو أي جعل الثاني نتيجة تلزم من الشعور بالفضل المتمثل فى العطية وهو مبني على الفتح.
صلِّ= فعل أمر مبني على حذف حرف العلة كما يقول النحاة العرب وهو مبني على تقصير الحركة الطويلة والانتقال بها من مقطع إلى مقطع، من مقطع مكوَّن من (ل + ى) إلى ل + - كسرة قصيرة.
والفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقديره أنت عائد على المخاطب سلفًا وهو الكاف.
لربك: اللام حرف جر يفيد الغاية والاستحقاق أي بيان من نتوجه إليه وبيان من يستحق الفعل. حرف مبني على الكسر. و (رب) اسم مجرور باللام وعلامة جره الكسرة الظاهرة وهو مضاف. والكاف ضمير المخاطب مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه، والإضافة هنا حقيقية محضة.

وجاءت شبه الجملة (لربك) متوسطة بين الأمرين صل/ انحر لتتعلق بهما، ولدفع توهم ارتباطها بأحدهما فقط.
وانحر= الواو حرف عطف مبني على الفتح أفاد الترتيب والجمع بعد إذ لم يكن يفيد الترتيب= بتطبيق النبي ﷺ، أي بصلاته أولًا ثم بنحره.
انحر= فعل أمر مبني على السكون لصحة آخره والفاعل مستتر وجوبًا تقديره أنت عائد على المخاطب ﷺ، ولا يخفى دلالة الأمر على الحضور المطلق فى حق كل متعبد بالنص.
3 -إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ
إن= حرف توكيد ونصب مبني على الفتح.
شانئك= اسم إن منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة وهو مضاف. والكاف ضمير المخاطب مبني في محل جر مضاف إليه على تقدير حذف اللام، أي إن شانئًا لك، ولعل في حذف اللام والتحول إلى الإضافة يوحي بمعنى حذف معنى الغائية، أي عدم وصول الشنآن إليه والابتعاد كذلك عن معنى الاستحقاق بمعنى أنه شنآن ظالم لا يستحقه ﷺ.
هو الأبتر: و قد يكون (هو) فى محل رفع مبتدأ ثانٍ والأبتر= خبره مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، والجملة منهما فى محل رفع خبر إن.
وقد يكون (هو) ضميرًا للفصل لإخلاص الأبتر للخبرية لأن، أي دفعًا لتوهم كون الأبتر لو لم يأت (وهو) صفة للشانيء، ويظل المتلقي معلقًا فى انتظار الخبر، فجاء هذا الضمير ليفصل بين المبتدأ الذي هو شانئ وبين خبره الخالص له وهو الأبتر.

عطاءات السورة

إن تأمل آيات هذه السورة يمكننا من استنطاقها استنطاقًا لا يتصادم مع المأثور مما روى عن بعض تفسيرها، ويمكننا استنباط بعض المعاني التي تتحملها طاقات التأويل التي لا تخاصم بطبيعة الحال معجمها اللغوي باعتبار الحرص على هذا التواءم من أصول التفسير المستقرة التي تقرر ضرورة أن يكون القول في تفسير نص قرآني غير مصادم للمفهوم من اللسان العربي زمان التنزل الكريم من جانب، وبالتالي غير مصادم لما تفرضه قوانين التركيب النحوي، و ما قد تفرضه بعض التقنيات البلاغية من جانب آخر، وسنقف أمام عدد مما نسميه عطاءات السورة في صورة فقرات نرجو أن نصنع إطارًا مترابطًا يخدم قضية مركزية هي (انكسار المعاديين للإسلام) محاطة بعدد من القضايا الدائرة في فلكها المعينة على تفهمها وتحققها:

(1) مضمون العطية الربانية

ظاهر النص يقرر أن الله أعطى نبيه كوثرًا معهودًا، وتوجه تفسيره وتأويله فى اتجاهين أساسيين، هما:

1 - اتجاه مادي (خير مادي أيًا ما كان نوعه).

2 - اتجاه معنوي (خير معنوي أيًا ما كان نوعه).

3 - وتميل هذه القراءة نحو اعتباره (الأمة)؛ أي أن الكوثر الممنوح للنبي ﷺ وهو الأمة يدعمنا فى ذلك الاشتقاق اللغوي الذي يقرر أن الكوثر بناء على زنة فوعل من الكثرة، بمعنى الخلق الكثيرين، وليس يمنع من ارتباط هذه التسمية بالتزاحم عند حوض أو نهر خاص بالنبي ﷺ لمن أخلص في متابعته والتأسي به.

وإذا كانت العطية (أمة/ أمة مرتبطة بالنهر أو الحوض) فإنه يلزمها منهج للتربية أو منهج للتنمية البشرية؛ لكي يتحقق لها التزاحم على نهره وحوضه ﷺ.

وأتصور أن طريق هذه التنمية لهذا الخلق/ الكوثر منضوٍ تحت جناحين كبيرين يمثلهما:

أ - الأمر بالصلاة، لرب العالمين.

ب - الأمر بالنحر، لرب العالمين.

وحرص النص الكريم على هذين الجناحين، وأحدهما من باب الفروض والواجبات وأعمدة الدين، وآخرهما من باب المندوبات والنوافل المشروعة أصلًا لتمام التزكية.

واستثمار مقولة التوليد الدلالي يقود إلى استخراج عدد هائل من دلالات رحم المحورين (الصلاة/ النحر) وهي دلالات تفرضها الأصول المعجمية والسياقات اللغوية وغير اللغوية كما يلي:

أولًا: تفجر الكلمة المحورية الأولى (صل) الدلالات اللازمة التالية:

1 - التطهر (شرط تبطل بدونه وهو في غير أفعالها) وهي مادية في المفتتح تؤول إلى معنوية بحكم ربط الصلاة بما تقود إليه فهي وسيلة إلى ما ورائها من نهي عن بغي ومنكر.

2 - العلم (وهو ما يلزم لإدراك طبيعة الميقات الزماني اللازم لإقامتها والمكاني لإدراك جهة القبلة ونوع المكان الصالح لها ونوع الماء اللازم لوضوئها والملابس الساترة للعورة والحفظ.. إلخ)

ج - الوحدة (فيما رتب الصلاة الجماعة من أجر فائق مقارنًا بالمنفردة، والتراص فى صفوف منتظمة والحرص على ذلك فى لين).

د - الهوية التاريخية (وهو ما يتبدى فى الحرص على الصلوات السرّية على الرغم من تغير الأجواء التي دعت إليها؛ لتتذكر الأمة جهاد الجيل الأول الذي عانى ولم يستطع أن يجهر بصلاة في

أوقات معلومة حكمتها اجتماعيات المجتمع العربي القديم)
هـ - التضحية (وهو ما يتمثل فى ضرورة التضحية بالأوقات والانصراف عن أي مشاغل).
و - الارتباط بالله سبحانه (وهو ما يتجلى في معناها اللغوي (الدعاء) وفي الإقبال عليه سبحانه وضرورة الخشوع بين يديه، ومناجاته بكلامه سبحانه، وإعلان الخضوع بالقول والحركة.. إلخ) وهو ما يتجلى كذلك فيما تلا هذا الأمر من تقييده بقوله (لربك)
ز - الوعي (وهو المتمثل في ضرورة التعقل فليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها/ وترتب الزيادة عليها إن سها فيها صاحبها بما شرع من سجدتي السهو نكاية للشيطان ودحرًا له)
ح - تربية الأمة على مقاومة الخلل (بما شرع فيها من الفتح على الإمام إن أترج عليه (أي سكت في القراءة) وتصويب خطئه إن خلط فى قراءته، وعدم متابعته فيما يأتيه من زيادات فيها، وهو تدرج عجيب قلما توقف أمامه أحد)
ط - الحرص على الإتقان (مبدأ الجودة) وهو فيما تواتر من ضرورة الاطمئنان في أعمالها قيامًا وركوعًا وسجودًا ورفعًا منهما، وفي عدم جواز إتيانها قعودًا مع القدرة عليها وقوفًا وعدم جواز إقامتها اضطجاعًا مع القدرة عليها قعودًا، والاطمئنان فى قراءة الفاتحة بما ورد من أنه ﷺ كان يقف عند رأس كل آية من آياتها، وإن كان المعنى يستلزم الوصل.
ثانيًا: تفجر الكلمة المحورية الثانية (انحر) عددًا آخر من الدلالات التي تشتبك مع ما مر داعمة ومؤكدة، وهي كما يلي:
1 - الاستنقاذ الإنساني مهمة جليلة راسخة، وهو ما يبدو فى تأمل الأضحية باعتبارها قربانًا لله سبحانه، وهو في أصله القديم افتداء الإنسان أنزله الله تعالى، وهو من أعلى دلائل الرحمة الربانية بالخلق.
ب - ترسيخ مفهوم التضحية المادية، وهو ما تجلى في تقسيم الأضحية والحضِّ على إخراج أغلبها لنفع الناس.
ج - الحرص على مفهوم الوحدة والتأليف بين دوائر طبقات الناس وهو عكس نسك الأضحية؛ حيث يظهر عناية الإسلام بتأليف دوائر الأسرة ثم الأقارب ثم الجيران ثم الناس جميعًا ولا سيما الفقراء.
د - العناية بمفهوم تواصل الأمة تاريخيًا باعتباره الوحدة التاريخية مقومًا من مقومات الهوية؛ إذ استمرار الأمر بالنحر إلى وقت نزول القرآن الكريم ثم استمراره إلى اليوم يعكس هذا الامتداد التاريخي الذي هو في أصله تذكر جهاد امرأة ارتبطت بالله سبحانه وتعالى، وأقبلت عليه، وحملت هم استبقاء الإيمان في الأرض في صورة الحرص على وليدها وحياته ومؤازرة زوجها في دعوته.
هـ - التطهر المعنوي، وهو ظاهر في السنة العملية التي كان يحرص عليها النبي ﷺ - ويأمر من نوى الأضحية ألا يقص شيئًا من شعره أو أظافره حتى ينحر لتذهب وتشهد له.
و - العناية بمفهوم التعبد العملي الذي عائده على أكبر عدد ممكن وفي ذلك إشارة واضحة إلى قيمة الطاعات ذات العائد على الأمة وتقدمها على غيرها من العبادات الذاتية الفردية وهو ما يعكس ضرورة تربية الأمة على فقه الأولويات.
ومن الملاحظ أن تنمية (الأمة/ الكوثر/ - الخلق الكثيرين) وفق هذين المحورين تقود إلى الحصول على عطية الله سبحانه وهو النهر، وإن كان المعنى هو الخلق، فإن عطية الله هذه تستوجب

رعايتها وتنميتها وفق المنهجية التي تخطط لها الآية الكريمة بمحوريها المركزيين (الصلاة/ النحر).
وبعد ذلك يأتي الضمان الإلهي الذي يقع فى أي وقت وهو قدرته سبحانه على بتر أي عدد مبغض شانيءٍ كاره.
والوعيد بكسر أي مبغض شانئ يشمل القطع المادي والمعنوي بحكم الدلالة المعجمية أولًا؛ لأن البتر قطع الذنب (المادة) وقطع الذكر (المعنوي)، بما يحمله من الانكسار والهزيمة ومن الغياب عن قيادة البشرية وانقطاعه الحضاري.
وفي الآية الأخيرة مجموعة من المعاني يحسن تأملها:
1 - يقول أبو السعود 951هـ في تفسيره المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) 9/205 معلقًا على قوله تعالى ﴿إن شانئك﴾ أي: مبغضك كائنًا من كان" وفي هذه العبارة الأخيرة من معاني الاستغراق الشيء الكثير؛ أي أن الموعود الإلهي متوجه بحكم ظاهر النص إلى كسر الشانئ أيًّا ما كان شأنه.
2 - وفي سبيل دعم تفسير الكوثر بالأمة يمكن استثمار التقنية البلاغية التي تحمل عنوان (رد الأعجاز على الصدور) واستعمالها هنا يقود إلى ترجيح هذا المعنى الذي قدمناه بعد شهادة اللغة له. إن الوعيد بالانتقام يكون من جنس ما سبق من جريمة، بمعنى إذا كان اتهام كفار قريش للنبي وتعييرهم له ﷺ بأنه مقطوع الذكر من جرَّاء موت ولده عليه السلام– فإن المنطقي أن يأتي الرد العقابي من جنس ما بدر منهم فيكون الأمر كما يلي:
(الكفار يرمون النبي بانقطاع نسله وذكره ﷺ
الله يتوعد الكفار بقطعهم استغراقًا).
ومن ثم يكون الوعد بالعطية في استفتاح السورة ردًّا على دعوى الكافرين، ولو أنهم رموه بالفقر والعوز لكان منطقيًا أن يعد الله نبيه ﷺ بعطية من الحقل الدلالي المتعانق مع دعواهم فيكون إنا أعطيناك الكوثر/ النهر والخير الكثير المادي، ويكون المتوقع ختام السورة أن يتوعد الله كارهيه ﷺ بقطع الخير عنهم.
في هذا النص الكريم يقين في مناصرة الله سبحانه للأمة ما استقامت على منهج واضح تخطط قسماته ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، وفي هذا النص الكريم دعوة للاطمئنان بما جاء في افتتاحه من توكيد العطاء، وبما وقع في ختامها من ضمان كسره سبحانه للعدو ضمانًا دائمًا مستمرًّا على الجهة التي تناسب جبروته من غير لبس ولا غموض مهما كانت قوة هذا العدو، ومهما كان ارتفاع بطشه وقوته.

الفصل الثالث
كأن القرآن يتنزل من جديد
آيات وسياقات ملتهبة

(1)
لقد كان عجيبًا جدًا، ومدهشًا جدًا، ومثيرًا جدًا، أن ينزل تعقيب القرآن الكريم على ما كان أصاب المسلمين في أحد، فيقول ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وهو الأمر الذي يفتح الباب أمام معاودة تحرير مفهوم النصر والعلو في الثقافة المعاصرة على هدي مما يلوح من الآيات الكريمة، التاريخ الواقعي المادي الذي ينتصر للعدة والعدد يقرر لحوق الهزيمة بالمسلمين في أحد، والقرآن يقرر أن الاستمساك بالحق، وعدم التنكر له، ومراجعة الأمة لأخطائها، والتعلم منها، والتعهد بالتكفير عنها، والتآخي الحقيقي، والثقة في المنهج الإلهي،هي معايير النصر الحقيقي، ومن أجل ذلك كان تعبيره عما حدث في "أحد» بالعلو، لا تصدقوا خطاب الخسائر المادية فقط في تعيين المنتصر، واستحضروا التمسك بالحق، وعدم التفريط فيه، والتجديد فيه.
عند تأمل المسألة نجد أن جهاد العدو، والاستمرار فيه، والنيل منه، وإيلامه، ورفع راية الله، هي معايير النصر.

(2)
أقسم غير حانث بربي أن لمراجعة القرآن الكريم وفحصه على هدي الواقع الملتهب، يمنحه التنزّل المتجدد، وأقسم غير حانث بمن نزَّله، وجعله خاتم الكتب أن للآيات التالية طعمًا جديدًا لذيذًا ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾،إن كثيرًا من وَحَرِ القلوب يختفي الآن مع ما يتنامى إلى أسماعنا من فوز ابن الثانويات الشرعية، الذي تربى وتدرب في حضن الحركة الإسلامية.أعلم أن الفتنة غير مأمونة على الحيّ، لكنني أقرأ الكتاب العزيز الآن، فأجده يتنزل من جديد.. تفاءلوا، وافرحوا بنصر الفكرة، وثقوا في الله تعالى، هو مولاكم، واثبتوا على الحق.

(3)
تذكروا قبل أن تستبدلوا! ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ من عجيب ما نبَّه إليه المفسرون بمن فيهم من المتأخرين، كأبي السعود: أن الله تعالى حكم على كل مبغض لمقام النبوة بأنه هو الأبتر، أي مصيره الانقطاع المادي والمعنوي. والمأمول من المعاصرين أن يضموا إلى هذا الحكم الطوائف التالية:
1. من ينكر نبوته.
2. من يتطاول على مقامه، أويسخر منه، أويقلل من شأنه، أو يتهمه بأي نقص من جهة البدن، أو الأخلاق، أو الزوجات.
3. من ينال من سنته الصحيحة.
ومازال الباب مفتوحًا، يضم غير هذه من الطوائف؛ ليتنبه كل أحد إلى موقعه من الآية؛ لأن الطعن في النبي ﷺ، طعن في الله الذي اصطفاه!

(4)
يقول تعالى:
﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ توقفت أمام هذه الآية الكريمة، فظهر لي ما يلي :
1. تجدد المراد الإلهي المعلن في الآية، واستمراره على الدوام، بدليل مجيء الجملة اسمية، وخبرها مضارع.
2. تعالي الإرادة الإلهية، وتساميها، وقهرها لغيرها من الإرادات، بدليل تقدم الإعلان عنها، وتأخر الإعلان عن غيرها، وبدليل ذم الإرادات الأخرى، ووصمها، وعيبها.
3. توافر إرادات الخصوم الذين يريدون الشر بالمسلمين، وهم جماعات مختلفة، وأصحاب أديان وملل متنوعة، وغير مجدٍ حصرهم، وتركهم على الشيوع أولى في باب تأمل المواجهة.
4. تنوع الطرق المستعملة من قبل الآخرين، بدليل وصف ما يريدون وتأكيده بقوله تعالى﴿مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ لم يعد من سبيل سوى الركون إلى جناب الله تعالى لتحقيق النجاة!
(5)
يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾
هذه آية عجيبة جدًا في زمان صعب للغاية.
إن الصمت المرعب للجماهير في بر مصر على تردي الخدمات المرير، في كل مجالات الحياة، ولا سيما الضرورية يفرض على عددٍ من علماء عددٍ من العلوم إطالة التأمل في سلوك هذه الجماهير، إن علماء علم الاجتماع، وعلماء علم النفس، وغيرهم مدعوون بإلحاح إلى دراسة الظاهرة، إن رواسب الخوف العميق الذي ارتفعت جدرانه بقوة بعد انقلاب يوليو العسكري، قديمة جدًا، ولعل قاريء الذكر الحكيم يلحظ أن أنبياء بني إسرائيل في مصر هم وحدهم الذين أعلنوا كثيرًا خوفهم من بطش الحكومات الفرعونية في غير آية كريمة، يقول تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ إن تاريخ الأفكار مدعوٌ إلى فحص المسألة على هدىً من أصح وثيقة تاريخية عن تاريخ اليهود في مصر، وهي المتمثلة في آيات القرآن الكريم.
(6)
يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ إن تأمل هذه الآية يفتح الباب أمام مقصد لله في تحقيق الإيواء، لقد وفّر رب العزة سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم، المربّي، والمربية، والمرضع، والبيئة النقية الصحية، والبيئة اللغوية المستقيمة الفصيحة، ثم هيأ له عند الكِبَر الزوج الأم الرحيمة، والبيوت، والعمل؛ ليكون الإيواء الممنوح شاملًا، يغطي مساحات الحياة جميعًا، إن برامج رعاية اليتامى في العصر الحديث قاصرة، وبرامج التربية للنابهين وغير النابهين قاصرة، راجعوا الذكر الحكيم من أجل حياة حقيقية.
(7)
﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ في الطريق إلى الآخرة من الضروري استصحاب ما به النجاة من سوء الخاتمة، والله تعالى يعلمنا أن نسأله أمرين ظاهرين في الآية الكريمة:
1. أن نسأله استمرار السير في طريق النور، والإيمان به، والدوران حول الحق الذي أنزله، والقيام بالذي أمر به، من طريق تحصيل العلم النافع، الوصل إلى النور.

2. أن نسأله المغفرة، والستر، ومحو الذنوب، وهو ما يعني أن رحلة طالب النور قد يعتريها بعض أخطاء، بسبب من شهوة، أو غفلة، أو ركون إلى جبلة الطين، وهو ما إن كان لزمه طلب المغفرة، تجديدًا للطريق، وحفزا للهمم، وهذان المطلبان يلخصان منتهى الوعي بطبيعة العلاقة التي ينبغي أن تحكم علاقة الإنسان بربه، والتي تتمثل في السعي إليه، والرجاء فيه، والاستشفاع بقدرته. ربنا أتمم لنا نورنا، وأدم سيرنا فيه، ولا تقطعه عنا، ولا تقطعنا عنه، واغفر لنا، وارحمنا، وتجاوز عما صدر منا عن جهالة، وسفاهة، وغفلة، وشهوة، وركون إلى الطين، نستشفع بك إليك، إنك على كل شيء قدير!

(8)

هل استشعر أحد معنى قوله تعالى﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ في أجواء المحنة، وبعد آلام فشت في الناس، تتنزل الرحمة الربانية، فتتهيأ أسباب نصر، لم يكن أي عقل يتصوره؛ لفقدان أسبابه، ولتباعد مقدماته، لكن الله أبى إلا أن يمنحنا صدق قانونه في الأرض: أن ينصر الحق، وينصر المستمسكين مع خذلان الجيران، وقلة في الزاد، وندرة في العتاد، وخوف مقيم، وتنكر قائم من الجميع، انتصرت كلمة الحق، ورضخ الباطل، واستسلم، ونفع الله بصواريخ استهزأ نفر من اللئام منها، ونجحت أياد فارغة إلّا من قوة موصولة بالسماء، وأرعبت أصوات صدحت باسم الله الجبار، فتهاوت قوى، ولم تجد طائرات، وانتكست رايات التفت حول أصنام الخيانة! الحمد لله وحده، نصرجنده، وهزم الأحزاب وحده! يا أهل مصر المستمسكين بالحق، المحتفظين بإنسانيتهم اثبتوا، وتفاءلوا، ولا تيأسوا، وثقوا في الله الذي نصر إخوانكم على ضعفهم وانكسارهم.

(9)

يقول تعالى ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في تأمل علو الأمة تظهر معايير غير تلك التي يألفها الناس، ويركنون إليها، بسببٍ من سطوة التعلق بالأسباب المادية.

إن الإسلام يقرر من خلال هذه الآية وأخواتها اللائي من جنسها:أن العلو شيء ربما خاصم حيازة أسباب التفوق المادي، وارتبط بتحقيق الإيمان بالله تعالى ابتداءً، بتنزيهه التنزيه العملي، وتوحيده التوحيد العملي المنعكس على الأخلاق والحركة والسلوك، فلا يكون ثمة قوي غيره، يرهب الجانب، وألا يكون ثمة متحكم غيره، لأنه وحده الحاكم، وألا يتطرق للوجدان شك في شريعته، والحق الذي أنزله، ولو اصطف الجميع في غير صفه، هنا يكون العلو، وهنا يكون النصر، ولو واجهنا عدونا بصدور عارية.

(10)

يقول تعالى

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ في علم اللغة اليوم عناية ظاهرة بتحليل النصوص، وأنها كاشفة عن دوافع أصحابها، ومقاصدهم، حتى روي عن بعض الصحابة: أن أسرار النفوس مكشوفة على ألسنتهم، ولعل تأمل هذه الآية الكريمة تفتح الباب من جديد لفهم النهي النبوي عن سجاعة الكهان، وهو التلهي عن كل كلام من شأنه أن يلبس على الناس الحق، الكهان ما يزالون بيننا، ولكن المدهش وجود كثير من الناس لديهم استعداد للسقوط في شراك الكهان الجدد، وآليات الكهانة الجديدة نوع من السجاعة الجديدة، تتمثل أسلوبيًا، وأدائيًا في ما يلي :

١ - الهدوء في التنغيم الصوتي.

٢ - تكرار عدد من الجمل، بطريقة خاصة.

٣ - اختيار معجم مائع، سائل.
٤ - تصميم الخطاب بطريقة إلقاء المسئولية على كيانات هلامية.
إن الكتاب العزيز يحذر من الاستجابة لسجاعة الكهان، ويفضح أصحاب لحن القول، على امتداد الزمان.

(11)

يقول تعالى :
﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ لقد تكرر هذا التذييل في عدد من مواضع الآي في الذكر الحكيم، وفي سياقات التعقيب الذي يطلقه الأنبياء بعد أوامر إلهية بالامتناع عن مراد لله تعالى، يتجاوزه القوم، ويعصونه.
ومن ثم فإن أي استشهاد معاصر به ينبغي أن يكون مستصحبًا تجاوزًا واضحًا لنهي صريح، وحرمة آكدة. إن قضية استدعاء الكتاب العزيز واجبة في بناء المعرفيات جميعًا، لكنها مع وجوبها يلزمها الاحتياط في تنزيلها المعاصر، ومراعاة سياقات هذا التنزيل. ليس من الحكمة، ولا من العلم، ولا من النبل أن يستدعيها أحد في سياق أدنى درجاته مع التجوز أنه سياق موضوع خلافي، وهو ليس كذلك، فكيف والذي يستدعيه يشغب به على حق ظاهر، يتخذ منه موقفًا انهزاميًا، لم يوجد نبي من أنبياء الله تعالى، يعقب بذلك التعقيب بعد شأن محتمل لرأيين، ولا يوجد نبي من أنبياء الله تعالى يعقب بذلك التعقيب في مواجهة قوم استمسكوا بالحق، واحتموا بإنسانيتهم في مواجهة الباطل!

(12)

يقول تعالى﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ من قوانين السماء خلق الإنسان قادرًا، ومن ثم فعمله مؤثر، وهو مدعوّ إلى فعل الخير، منهيّ عن عمل السوء والشرور، وقد رتب الداعي سبحانه الثواب على دعوته الأولى ورتب العقاب على دعوته الآخرة. ومن عجيب الآية أن استعملت ﴿مَن﴾ وهو من الأسماء العامة الصالحة للتنزل على الأفراد والجماعات والكيانات والدول. إن أول شروط التعلم من المحنة أن نبحث في السوء الذي تورطنا فيه، فعوقبنا، وجوزينا، بسبب من ارتكابه. ومن الخطأ المروع الظاهر أن نحصر السوء في المعصية الفردية، ومن ثم ندعو الناس إلى الاستغفار منها، وهذا الأمر على جلاله وخطره، ليس معقد النظر. ينبغي أن نتجاوز هذا النظر إلى تأمل المعصية الجماعية، والمعصية الجمعية، وأن نفحص المعاصي السياسية التي تورط فيها نفر كانوا محل ثقة خادعة، وكانوا معقد آمال كالسراب، خدعوا من ائتمنوهم، ساعة لم يتنحوا عن أمر لا يفهمون فيه! ولا علاج لهذا السوء إلا بالعمل الإيجابي القادر على تصحيحه، إن الاستغفار من هذا السوء الجماعي لايكون بالتوجه الفردي إلى الله تعالى طلبًا للغفران، مع جلال هذا وأهميته، لكنه يكون باعتزال من تسببوا فيه بجهلهم، ورعونتهم، وادعاءاتهم المعرفة وهم لا يعرفون!

(13)

يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ إن أول ما يصل إلى النفس والعقل معًا من هذه الآية الكريمة هو أن الله تعالى صاحب الأمر كله، يملك مواقيت الأمور، وهو وحده، سعى الخلق أو لم يسعوا، محقق مراداته. وبلوغ الأمر الذي يعلن عنه مؤكد، لا مجال لأن يشك فيه أحد بدليل التصميم اللغوي للآية، وهو مستغرق للزمان، في الحال والاستقبال بتحكيم القراءات في هذا الموضع، وهو قائم في النفوس بدليل ما مر من حادثات التاريخ المذهلة. والله يريد من خلقه أن

يتوكلوا عليه، ويركنوا إلى جانبه، ويديموا الاتصال به، والإقبال عليه، والسؤال منه، والإلحاح عليه، والانكسار بين يديه، ونفض اليد إلا من فضله، وساعتها يكون سبحانه كافي الناس جميعًا، ومانعهم من غيرهم، ومنتصر لهم، إنه من يتوكل على الله سبحانه يكفيه ويغنيه. لقد رد النبي الكريم، ﷺ، جوار نفر من المشركين دخل في جوارهم مدة من الزمان، ولم يتحقق له النصر، والمنعة إلا بعد أن مات مناصروه، وكافلوه، وخرج من جوار من كان سبق ودخل في جوارهم، انتصر في اللحظة التي تخلت عنه فيها كل أسباب البشر، وانتصر في اللحظة التي طلب منه مجيره شيئًا لأنه يستشعر الحرج من النظام القائم قديمًا، انتصر عندما ركن إلى جوار الله وحده، فكان النصر، وكانت المنعة، وكان انتصار الزمان!

(14)

يقول تعالى ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ هذه آية جليلة القدر، ربما تحتاج إلى فضل تأمل جديد، ذلك أنها جاءت في سياق مضرب المثل، بعد قوله تعالى﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾، وهو مثل لامرأة مؤمنة، والمرأة في الثقافة العربية، كائن لطيف، ضعيف، متأخر الرتبة، قياسًا بالرجل، وهو ما يجعل الاقتداء بفعلها الإيجابي هنا غير مقاوَم، لقد تبرأت المرأة من فعل طاغية الزمان، وقالت بملء الفم ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ وتبرأت ممن أيده، وشايعه، وفوضه، وفرح بمسلكه في قتل المؤمنين، واستباحة حرمة النساء، والتنكيل بالجميع، فقالت ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهو درس بالغ في البراءة لا يملك المعاصرون ترف التنكر له، وعدم الالتزام به. كانت المرأة واعية بإنسانيتها، لم تُطِق أن ترى مجرمًا عاتيًا، يلغ في الدماء، ولا تنطق بالتبرؤ منه، ولم تطق أن ترى همجًا خانوا قدر الله في إنسانيتهم، فصرخت بالحق، وأعلنت عدم رضاها، ورفضها لهذا الانهيار الإنساني. هذا درس ممتد على الزمان، امرأة نطقت بالحق، واحترمت شرف البراءة لنفسها، ثم طلبت أكرم جوار، وارتاحت إلى أعظم حامٍ سبحانه! رضي الله عن امرأة فرعون، وردّ من فيهم بقية خير إلى مقام الإنسانية!

(15)

يقول تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ في تاريخ الإقبال على الله تعالى تبدو المعادلة الصحيحة قائمة في الاطمئنان البالغ إلى قوته، وحياطته للمقبلين عليه، كرمًا منه، سبحانه، وتحقيقًا لتجليات أسمائه وأوصافه، التي أعلنها على خلقه، ساعة دعاهم للإيمان به، والإقبال عليه. وباسم هذا الذي كان منه أمرهم بعدم اليأس من رَوحه، ولا من قدرته على أن يُفرج عن المكروبين كُرَبَهم، ولا من فضله على أن يُروّح عن المحزونين بذهاب حزنهم، وأن يغسل عن المكدودين ما أرهق كواهلهم، ولا عن الخائفين ما ألجأهم واضطرهم إلى الشتات في الأرض، تحملهم تارة، وتتقلب بهم أخرى، وتوعد الذين يخالفون عن أمره، ويقتربون من حدود أرض اليأس بالعذاب ساعة وصمهم بالكفر! وهذا محتاج إلى فضل تأمل؛ لأنه أراد منهم أن يملأوا عقولهم وقلوبهم وضمائرهم بتصديق ما أخبرهم به من أمر قدرته، وقيوميته، وحفظه، وهو الصادق سبحانه الذي لا تتخلف عنه قدرته، ولا تتعطل قيوميته، ولا يعجز عن حفظ، ومن أجل ذلك كان اليأس إعلانًا صامتًا وصريحًا بعدم تصديق ما قام الدليل على ثبوته في حق ربنا، لقد جاء هذا القول الكريم، بعد ضياع يوسف، وبعد إلقائه في الجب، وبعد ما يشبه الضياع لأخيه بعد أن أُخذ في دين الملك، ولكن يعقوب النبي الموصول بالله، المصدِّق بما أخبر به سبحانه عن نفسه، أسقط ما كان من علم الدنيا انتصارًا لما كان واستقر في نفسه من علمه بالله تعالى، وهو في هذا محق سابق لكل نظريات العلم

المعاصرة، أَلَم يعلمونا أنها نظريات احتمالية؟! فلماذا نركن إلى بطش الجبارين، وإلى ظلم الظالمين، وإلى فُجر الفاجرين مع أن الدليل الذي لا يُنازع قد قام على أنهم منقطعون، وزائلون! لقد ملك يوسف، بما يعني أنه وُجِد بعد مظنة الهلاك، ضم إليه أخاه بعد مظنة أخذه في دين الملك، ورفع أبويه على العرش بسببٍ من إيمانهما برفعة الله تعالى. اطمئنوا، وثقوا في الله تعالى، وكونوا على طريقه، ولا تيأسوا، لأنه باقٍ أبدًا، قيوم أبدًا، حافظ أبدًا!

(16)

يقول تعالى:﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ هذه آية جليلة القدر، تفتح الباب أمام المعاصرين الذين ترهقهم اللحظة الراهنة، وتقترب بهم من حدود الموت المعنوي البطيء القاسي لمعاودة تأمل مواقفهم. أي شيء ينال من عزائمهم؟ وأي شيء - يلفتهم عن الحقيقة الباقية الساطعة التي تعلن أن الله هو الحق؟! والحق هو الثابت على حين يرحل كل مافي الوجود سواه، والحق هو الدائم المتعالي الكبير الذي لا يطاوله أحد، ولا يدنو من ثباته ولا من علوه ولا من كبره أحد. الله هو الحق، وما في الكون على امتداد الزمان جميعًا هو الباطل، لأنه يزول، ولا يثبت، ولا يبقى. وهو الباطل الذي ينكسر دومًا، وينهزم دومًا، ويغيب دومًا، وينقطع دومًا، ويذل دومًا، ويزل دومًا.وفي سياقات أخرى يبدو الباطل زهوقًا، يقول تعالى﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ والباطل هنا صفة مشبهة باسم الفاعل لا صيغة مبالغة، كما جاء عند جمهور المفسرين؛ لأن الباطل زهوق دومًا، وهو زهوق باستمرار وثبوت! الله هو الحق فدوروا معه، وهو الحق فانتصروا لمراده، وأقبلوا عليه ليرعاكم، ويبدل الأمر لكم، وانتصروا لإنسانيتكم، وتبرءوا من الباطل لأنه معاند لله، ومعاند للحق! الله هو الحق فمن ذا يريد البقاء الأبدي السعيد!

(17)

يقول تعالى ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ من بديع أمر الإسلام ما جاء به من رحمة، وضع بها الأغلال التي كانت على من قبلنا من الأمم، ورفع بها الإصر الذي كان. ومن ذلك كفالة التوبة في أي وقت، قبل خروج الروح، ومن كل ذنب، وكفل سبحانه الغفران من الذنوب جميعًا، أليس هو القائل سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ وهذا أوان الناس أحوج ما تكون إلى التراحم، وأحوج ما تكون إلى الفرح ببعض الخير يبدو من آحاد الخلق، كان أمر العقلاء من السلف الفرح بعودة الذين أسرفوا على أنفسهم، وكان النبي ﷺ يرجو الإيمان للخلق، ويدعو به لأعيان بعينهم، ويسمى خلقًا يرجو نصرة الدين بهم، ويزجي مِدَحًا لأعيان، أملًا في هدايتهم، إنني أدعو للفرح ببوادر التوبة التي يمكن أن تلوح ممن نعرف له سوابق من الفضل والخير.إننا ساعة نفعل نترفق بأنفسنا، ونرحم أنفسنا، وندخر لها بعضًا من الخير يعود إلينا عند الحاجة. إن الله تواب رحيم، ويحب من خلقه أن يكونوا رحماء، يفسحون الطريق لعودة من يريد العودة. لا تكونوا عونًا للشيطان على من يريد الله!

(18)

يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، نزلت هذه الآية تعليقًا على قوم كانوا يسمعون من النبي ﷺ، فلا يتحرزون من نقله وإفشائه إلى المشركين، والمتأمل للآية يلمح تكرارًا عجيبًا للنهي عن الخيانة، مرة بالنهي في صورة قاعدة عامة شاملة تقرر حرمة خيانة الله تعالى وخيانة نبيه المصطفى، ومرة أخرى بالنهي عن خيانة الأمانات التي تقع في قلب مسئوليات كل امرئٍ. وهو التكرار المفضي إلى توكيد حرمة الخيانة، وتغليظ أمر

الاقتراب منها. وقراءة الآية في سياق ما رُوِي من أسباب نزولها يحملنا على أن نقرر أن ثمة أنواعًا من الخيانات أهمل الناس تقدير خطرها، ففي الحياة خيانات اجتماعية نزلت الآية فحرمتها، وفي الحياة خيانات سياسية هي آكد حرمة، وأشد وقعًا؛ لأنها تضر بالأمة جميعًا. الآية تفتح الباب أمام تحريم كل خيانة، وتؤكد أن التقصير في ما رضي الإنسان وتحمله من الأعمال والواجبات خيانة لله ورسوله، ولمقدرات الناس والأمة. ولن يفلح خائن لله ولرسوله ولأمانات الخلق، وأنه ما من خائن إلا سيرتد غدره عليه، وسيأتي بعد ذلك يحمل لواء غدرته يوم القيامة. لقد تسببت الخيانات، ولم تزل، في هزائم منكرة للأمة، والله سبحانه سيلقي على الخائنين ممن خانوا الله في وظائفهم ومسئولياتهم، خزيه وعذابه، به في الدنيا والآخرة، ذلك أن الله تعالى لا يهدي كيد الخائنين، فهو القيوم سبحانه!

(19)

يقول تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ هذه آية جليلة كأنما تتنزل اليوم! إن تهامسًا يدور في بعض النفوس، ويريد أن يجد له آذانًا تسمح لما يغلي في الصدور أن يتنفس، وودّت لو تلقى من يرده بالحق والإقناع المدعوم بالدليل، وفي هذه الآية تجاوب مع هذه الحالة.استيئاس الرسل هو بلوغهم اليأس من استجابة من يدعونهم، ويحترقون شوقًا إلى هدايتهم، وظنهم هو يقينهم من تكذيبهم، والتنكر لدعوتهم، والشغب على الهدي الذي يبشرون به، والنور الذي يحملونه للناس، والإيمان الذي يرجون عمارة النفوس به. في هذه اللحظات المقبضة، والأجواء الخانقة، والمحيط الأسود الذي لا يبشر بنصر، يلوح في الأفق نوع نصر لم يرد على الأذهان، ونوع نصر لم تُر مقدماته بين الناس الذين انفضوا عن الانتصار للحق، والإنسانية، والإيمان، والطريق القويم. في هذه اللحظات التي يُطارد فيها الرسل، ومن يستمسكون بمواريث النور، والحق تتجلى - قدرة الله تعالى في تنزيل النصر، وفي تخليق النجاة من دون سابق تمهيد بشري، ومن دون قدرات أرضية، ومن تمام النجاة الموعود بها بعد تحقق اليأس التام من الانتصار بمحدداته الأرضية، أن يقع الانتقام من - المجرمين، وأن يتحقق تساقط البأس، والشدة، والعنف بالمجرمين، أفرادًا وجماعات!عجيب أن تتكلم الآية عن القوم المجرمين بما هم كثير لا يعجزون الله، وبما هم جموع متآزرة، وبما هم حشود متساندة، وعجيب أن يكون وصفهم الملازم بالمجرمين من دون الكافرين ليقطع الحجة على الذين يشغبون بأنهم لا يجري عليهم وصف الكافرين، وليصح الحكم بالآية في كل زمان! بشّروا الذين بلغ اليأس منهم مبلغه، وضاقت صدورهم، وأُوحي إليهم أن القضية أُبرم الحكم فيها، وأن المسألة أُغلقت، وأنه لم يعد ثمة أمل في انتصار الحق أن هذا أوان تنزل النصر، ووقت ولادة - النجاة، وزمان الانتقام الإلهي من المجرمين! يا أهل الحق تمايزوا، وفروا من مقامات المجرمين، فإن النصر والنجاة لأهل الحق توشك أن تخرج من رحم الغيب الذي تلوح أمارات تنزله!

(20)

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ هذه آية جليلة القدر، وهي صالحة لأن تكون دستور نجاة لأفراد الأمة، ومجموعها، لقد دأب الناس على تذكرها، إن تذكروها، في مقام المعاصي الفردية، وربما سجنوها، في التخلف عن العبادة، تركًا، أو تقصيرًا، والحق أن هذه الآية بتعريف الشيطان فيها، وإطلاقها الزمني، الذي لم يقطعه قاطع من قرينة، تقصره على وقت بعينه، وبإقامة الدليل العملي على ناتج عداواته في آخرها تريد

أن تعلن التحذير الجامع للأمة لكي يتنبهوا إلى الأعداء، الذين شملهم التعبير بالشيطان! إن الأمة التي لا تحسن صناعة الكراهية، كما تحسن صناعة الحب أمة لم تفهم عن الله تعالى مراده في قيادة الخلق، وإن الأمة التي لاتجيد صناعة العداوة كما تجيد صناعة الإحسان والتراحم أمة خاسرة، تركت للأمراض فرصة لانتهاب جسمها، ووسعت الطريق، لافتراس هويتها، وقوتها. الله يأمر الأمة أن تتخذ من الشيطان عدوًا، وأن تديم تذكر ذلك، وأن تستمر في مراجعة خطط هذه الصناعة الاستراتيجية في أجيالها المتعاقبة، وأن تكون على حذرٍ وذكرٍ دائمين لثأرها ممن أخرج أبويها من الجنة، إن معركة الصراع بين الحق والباطل، وبين التوحيد والشرك مرهونة بدوام ترقية صناعة الكراهية، وصناعة العداوة للشيطان في الأمة، والشيطان، وإن كان لفظًا لغويًا دالًا على ما جاء من نسل إبليس، لعنه الله، فهو كل شر في الحياة، وكل بلاء، وكل معاندة، ومعاداة لله، وشريعته، وما أراده من خير وأخلاق بين الناس، إن الشغب على صناعة الكراهية وصناعة العداوة للشيطان، وأوليائه، ومن يحمل لواءه، من الأفراد، والجماعات، والكيانات، والدول، والأنظمة بقية - من بقايا استلاب الأمة، من جهة الهوية وبقية من غزو للفكرة الغربية التي نبتت في أحضان عقائد أخرى، تروج للصفح التام، والخذلان المستتم، وترفع الصوت بالضعف القاتل المهين للأمة، الفكرة الإسلامية فكرة إيجابية تقتحم العالم، والحياة، وتفرق بين الصلاح، والشيطان، وهي غير الفكرة المسيحية، تعلموا صناعة الكراهية والعداوة للشيطان من أجل النجاة والبقاء!

(21)

يقول تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (139) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ هذه آيات جليلة نزلت في أعقاب محنة قاسية، وظرف تاريخي عصيب، بعد غزوة أحد، في مفتتح تأسيس الدولة الإسلامية في التاريخ كله. وهي تريد أن تقر أسس البناء، وتعلي من ركائزه النفسية في الأمة، بتقدير ما يميزها عن غيرها في طريق الحياة، وتعلم أبناءها أن يخاصموا الهوان، والانكسار المعنوي، لأنه عاصف بالأحلام، مغتال للطموح، مدمر للمسيرة، وهي في سبيل ذلك ترفع من قيمة الأمة، وتقرر معيارًا وحيدًا بالغ القيمة والجودة في تقدير موازين الأمم، وهو الإيمان النقي بالله، والإقبال عليه، والتصديق بموعوده بعد الاطمئنان إلى حمايته، والاطمئنان إلى شريعته، لا هوان، ولا ذلة، ولا انكسار لمن حصّل الإيمان، في القلب، وصبغ الجوارح بما يقوم برهانًا عمليًا على هذا الإيمان. أما آلام الواقع، وأحزانه، وشدائده، وخسائره المادية فكل فريق حاصل على قدره منها، من دون أن تكون حاسمة في تقدير نصر المنتصر، أو هزيمة المهزوم، ذلك أن توزيع القرح إنما هو بالتساوي في هذه الحياة، من أهل الحق أولوا تضحية، وإنفاق، ومنهم من تشخب الدماء من جروحه في منازلة أهل الحق، ومنهم من يهلك في المعركة، وهم في كل هذه الوجوه يستصحبون الآلام، والخزي، والعار، وربما الكراهية، لأنهم يفعلون وهم كارهون مقهورون، أما أهل الحق فيبذلون ساعة يبذلون، ويضحون ساعة يضحون، ويجرحون ساعة يجرحون، ويستشهدون ساعة يستشهدون وهم يطربون، ويملؤهم الفرح الغامر بالاصطفاء، ويتيهون فخرًا بما يقدمون، القرح واحد ولكن النتائج متخالفة! إن الله يريد منا أن نكون على الطريق الذي اختاره، مؤمنين به، راضين، مبتهجين،غير ظالمين، وهذه هي معايير النصر لا غيرها، صحيح أن العلو المادي، وكسر الباطل مراد لله تعالى، ولكنه وجه من وجوه النصر! ياأيها المستمسكون بالحق، المدافعون عنه، اقبلوا من الله، وأقبلوا على الله، وراجعوا المسألة، واستهينوا

بقروح الزمان، وتيهوا بها واجعلوها مادة للبهجة والفخار؛ لأنكم بالله أعلى، ولأنكم بمخاصمة الظالمين أرقى.

(22)

يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ هذه آية جليلة كأنما تتنزل اليوم، إنها تعلن أن الأرض، وهي الأرض عند الإطلاق، وأن الحكم مآل أمره لمن سماهم بعباده الصالحين، وهم من يؤمنون بمرجعية السماء الخاتمة بدليل التعقيب على الآية بقوله موجها الخطاب للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، بالإقبال على الله سبحانه، والعمل بمقتضى آخر شرائعه، والاتباع لخاتم رسله، وراثة الأرض، والحكم، وبها يكون العلو، والارتقاء، والسيادة، والآية تبلغ وتعلن القانون الموصّل للوراثة، والسيادة فتقول ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ أي أن الرسالة المتقدمة مقصود بها هؤلاء العابدين، المتبتلين، المخبتين لله تعالى. إن الكتاب العزيز في حاجة ملحة لإعادة قراءته في ظل المحنة؛ لأنه كتاب ينفتح عطاؤه في المحنة، لقد تنزل في أجواء ملتهبة ليحقق انتعاشة الحياة، وهو كتاب الزمان الذي لا تتغير قوانينه، ولا تتبدل معاييره، القرآن يعلن أن النصر قادم، وأن جيل تحقيقه هم المستمسكون بروحه، وقوانينه، ومبادئه، وشرائعه، وما افترضه على المؤمنين من عبادات، وما جاء به من سامي الأخلاق! الله قال وحكم، والزمان مصدّق حكمه وما قاله لا محالة!

(23)

يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ هذه آية جليلة القدر تربط على القلوب التي تجاهد بالكلمة، فيُضيق عليها، وتمنع، وتحارب، في كل عصر، ثمة نوع معاصر من المكاء يكمن في الشغب على الأقلام الحرة النزيهة، بالاتهام، والإقصاء، والقصف، حتى لتجد صاحب المنصب الكبير يأمر مدير تحرير الصحف التي تصدرها المؤسسة التي يترأسها بمنع من يخالفونه من أهل الحق، والعلم، ولو كانوا أكبر منه، وأعلم منه، وثمة تصدية معاصرة أيضًا تتمثل في مطاردة أصحاب المبادئ، والتضييق على أقلامهم، ومحاصرة مدادهم.

وهؤلاء الذين يمارسون المكاء والتصدية من الشيوخ والوزراء ورؤساء مجالس الإدارات المعاصرين واهمون؛ لأن الكلمة لا تحاصر، ولا تمنع، إن سُدّ أمامها باب فُتحت أبواب، وإن حُرقت الأوراق، تلقفتها الأذواق، ثم هم واهمون لأن الحق لا يقف في وجهه انغلاق مجلة، أو صدود دورية، الحق مقتحِمٌ!ثم يكون العذاب لأولئك الذين يمنعون كلمة الحق، ويصدون عن السبيل، بمناصبهم الزائلة، سيرحلون بعار إقصائهم، ومنعهم، وسيبقى الفخر والمجد والرقي لمن منعوهم، وصدوهم، وأغلقوا النوافذ أمام أقلامهم، منعًا من وصول علمهم، وأحرقوا الورق حتى لا تنير بالمداد الطرق. المكاء والتصدية مستمران، كانا قديمًا في الكعبة، وهما اليوم باقيان في ما يشبه الكعبة في مصر، وفي غيرها.

(24)

يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ هذه آية من آيات الوقت، مملوءة تحذيرًا، وإنذارًا لمن يعقل، يوشك من له سمع أن يتزلزل من وقع صوتها المدوي، ويوشك من له قلب أن يمتلئ رهبة، وخوفًا من تتابع كلماتها. الآية ناطقة بأن عذاب الله

يوشك أن يعصف بالذين يتنكرون لقيم الألوهية، فلا يرون لله حقًا، ولا يعبأون بتوحيده توحيدًا حقيقيًا، فيمتنعون من سفك الدماء، وقتل الأحياء، ويتوقفون عن التضييق على الأرزاق، الآية ناطقة بأن العذاب يوشك أن يقتلع الذين يعبثون بقيم الربوبية فيستعملون خيره للفتك بخلقه، ويوظفون رزقه للتنكيل بعباده، وينزلون ما منحهم من قوى بعباده الضعفاء. الآية مصرحة بأن العذاب واقع في أي وقت، وهو ما نطق به استعمال الطباق بين: بغتة، وجهرة، وهو نوع نادر من الطباق يعرف بطباق الاستغراق يرمي إلى الشمول، الله تعالى يملك الزمان وهو قادر على أن يبطش بالذين استهانوا بالإنسانية، وتنكروا لقيمها، وهو سبحانه موقع بطشته، وعذابه بالقوم الظالمين، والظالمون هم أولئك الذين نسوا أنهم من طين، وتجرءوا على مقامات الدين، وانحرفوا ساقطين، وهللوا للسقوط في آبار الحيوانية، وصفقوا لقيم الافتراس، واستهانوا بالأعراض والدماء، الله هنا، ولن يترك الظالمين، ولن يترك الذين فوَّضوا الظالمين وركنوا إليهم، ولن يترك الذين استمسكوا بالحق، وابتعدوا بإنسانيتهم بعيدًا عن الدم، والفرح المخزي بسفكه، والبهجة المريضة بعلو الباطل المؤقت! الله هنا، وهذه هي الحقيقة الخالدة!

(25)

قوله تعالى في سورة الشورى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ من عجيب أمر الكتاب العزيز الذي وقع لي بعد تتبع وتأمل الحفاوة البالغة بمراجعة الأمة في ما يفرط منها، ويقع من أخطائها، سواء كانت منتصرة، أو مهزومة، فقد افتتح الآيات بعد «بدر» ببيان أخطاء الأمة في الأنفال، وأطال النَّفَس في بيان من ساءت أخلاقهم فيها، وفي حنين ألح على الخطأ المروع الذي تورطت فيه ساعة ركنت إلى قوتها، وزهدت في الاعتماد على الله في افتتاح المعركة، ولم تنتصر إلّا بعد أن فاءت لربها، وتابت وأنابت إليه واستمطرت رحماته واستنزلت سكينته سبحانه! والأمة اليوم مأمورة، ومطالبة بمراجعة أخطائها، الأمة مأمورة أن تبدأ من نقطة الإقرار أن ما كان مما وقع وكان، كان بسبب أخطائها هي قبل أي شيء. ولا يقول لي أحد إننا نجيد جلد الذات، أو إننا نحمل أنفسنا فوق ما تطيق، ولا أحب من أحد أن يكون قدريًا فيقول: إن لله مرادًا في ما حدث. ليس لله مرادٌ في عذاب الناس إن آمنوا، واتقوا، وأحسنوا، وتوقوا معاصي الطريق، صحيح أن الذي كان كان بقدر الله، ولكن المعادلة الصحيحة تقتضي :أن نقرر أن الذي وقع كان بسبب أخطاء الصالحين في الأمة. نعم، هذا ما نطق به الذكر الحكيم في ما نقلته لك هنا الآن.

المحنة والهزيمة كسب من كسب الأيدي، وناتج ما اجترحته، وحاصل تدبير، وعمل، في غير الاتجاه الصحيح.

المحنة والهزيمة كسب عقول استهانت بالسنن الكونية التي زرعها الله في الكون، وهي لا تحابي أحدًا، وقد كان من كثيرين حولنا استهانة بالسنن.

المحنة والهزيمة كسب نفوس تورطت فهادنت أهل الباطل، وسارت في ركابهم، ولو بتأوّل خاطيء، ما كان يصح أن يكون.

المحنة والهزيمة كسب قلوب تولت أهل الفساد، وركنت إليهم ولو بخطة وتدرج. المحنة والهزيمة كسب أبدان رضيت أن تتحرك مخدوعة، أو راضية في ركاب بعض أصحاب التاريخ المخزي، وتأكل في صحافهم، وتجلس إليهم على موائدهم. الهزيمة والمحنة بعض عذاب نزل، وخلفه عذاب مقيم عفا الله عنه فلم يقع! الله هنا، والله لا يغيب!

(26)
يقول تعالى ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أما أن مراد الله تعالى هو نصرة المؤمنين فهو الظاهر، وهو الحق الوحيد، لا يرتاب في ذلك أحد، وليس لأحد أن يرتاب، وإلّا اختل عمل العقل، وحصاد المعرفة، وطبائع الشرائع! الآية من آيات الوقت، والمتأمل في سياقاتها يدرك أن الله سبحانه ناصرٌ الحقَّ، ومعزّ أهل الإيمان.
الآية تقرر أن الانحياز للإيمان في مواجهة الشرك هو باب الفرح الواسع.
الآية تعلن أن علو الباطل مرحلي، وأن انتصار المؤمنين نهائي.
الآية تصرح بقدوم الفرح، وتعالن بالفرح القادم، لكن بشرط تحقق الإيمان ومخاصمة الذين كفروا ممن سماهم الكتاب العزيز كفارًا، في آيات كثيرة، تجدها في إعلان الذكر الحكيم عنهم بالتعبير الإخباري المدهش ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾ المؤمنون اليوم مطالبون بمراجعة الذين اصطفوا في صف الباطل ممّن يخاصمون مقامات الإيمان، و مأمورون بمراجعة مواقعهم من معسكري الإيمان وغيره، حتى يصح منهم ترقب الفرح الآتي عندما يأذن الله سبحانه بتنزُّل النصر على المؤمنين!
الله يحمي عباده، الله لا يخذل عباده، الله يحوط عباده، فكونوا مؤمنين، وكونوا من عباده!
(27)
يقول تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من خصائص الأمة المسلمة امتلاكها المرونة الكافية التي تمكنها من امتصاص الأزمات، والهزّات بلا انكسار، وبلا غياب تام وهو ما يؤكده الوحي النبوي الذي يقرر أنه أُعطي ما لم يُعطه نبي قبل المصطفى، وهو ما تمثل في حفظ الأمة، وأنها أمة آمنة من عذاب المحو والاستئصال. في هذه الآية الجليلة البديعة بيان لدستور الفرح، وبرنامج واضح للبهجة المؤمنة، والسعادة البيضاء. إن الله يعلِّم الأمة أن تحسن صناعة البهجة الخضراء التي يغمرها الرضى والهدوء والبشاشة، من أجل أن تجدد طاقتها على الإنجاز، وتجدد قدرتها على البقاء المثمر، وتشحن طاقتها على مقاومة عوامل الهدم، والسقوط. والفرح هبة ربانية طريق تحصيلها أن تعرض الأمة نفسها لفضل الله تعالى، ومحددات استنزال هذا الفضل ماثلة في طاعته، واستغفاره، وتقواه، والعمل النافع بين خلقه، وإعمار الوجود.
والفرح منحة ربانية طريق حيازتها أن تتحلى الأمة بالتراحم في ما بينها، وأن يستبقي الأفراد مقومات إنسانيتهم، وأن يصونوا أنفسهم من مغبة السقوط في حمأة الحيوانية، التي تهش للدم الإنساني، وتعلو وجوهها البسمة المريضة لمطاردة الناس، وتطفح قلوبهم بالسرور المخزي من خوف الخلق! إن الأمة مأمورة أن تتعلم صناعة الفرح المؤمن الأبيض الذي يرقى بالوجود الإنساني، ويرجو أمانه، واستقراره، وشبعه! والأمة مأمورة أن تحسن صناعة الفرح الآمن البشوش الذي يحيل الوجود إلى جنة أرضية هانئة. والأمة مأمورة بأن تجوّد صناعة البهجة الصحية، التي تتوق إلى حفظ النفوس، وحفظ أمانها، وصيانة قلبها من الأوجاع! الله يدعونا لحصاد الفرح والبهجة التي تنبت على حياض فضله، في بساتين رحمته، فلا تحرموا أنفسكم من الفرح بالله!
(28)
يقول تعالى ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ هذه آية من آيات الوقت تعلن أن للمسلم واجبًا متعينًا هو الحركة الواسعة في مواجهة الطغيان في كل تمثلاته، وأشكاله، ومناهجه، ورموزه، وعصوره! وفي الآية وما بعدها إشارة للحركة المهتدية بضابط العقل المستقيم، وناتج الثقافة الراقية المعجونة

بالمنجز الجمالي، وهل القول اللين إلّا حصاد الفكرة الراقية المصوغة في ثوب من البيان المشرق، المختلط بالجمال الذي رائده اللين؟! صحيح أن الأمر لنبيَّيْن، ولكنه انفتاح على الزمان ليكون منهجًا دائمًا في مواجهة كل فرعون، وفي مواجهة كل استبداد، وهو أمر يحمل على استنهاض المجموع، والتحرك بالمجموع، والمواجهة في سياق المجموع، واستفزاز لطاقات المجموع، وحفز على تجاوز الفردية، في استعمال (اذهبا) أمر بالحركة، وفي (قولا) أمر بالفكرة، وفي الأمر بهما معًا استنهاض للقدرات جميعًا، ودفع في الاتجاهات جميعًا، وتقدير للميدان محكومًا ومهتديًا بعطاء الفكر والوجدان! وفي التعبير بالفعل(طغى) ماضيًا حملٌ للمأمورين أن يتوسعوا في جمع صور الطغيان، والحركة لمواجهتها، وعدم الاستهانة بصورة من صوره، وعدم الأمان لأي من أجنحة الاستبداد! الآيات الكريمة منهج قائم دائم يعلن أن الطغيان منقطع بالحركة، والفكرة، والبيان، والفنون، واستفزاز الوجدان من الإنسان!

(29)

يقول تعالى ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ هذه آية جلالها منقطع النظير، يتوعد فيه ربنا الذين يقتلون الناس ظلمًا، من دون أن يتعرض لذكرهم، إمعانًا في ذمهم، وإمعانًا في الزراية بهم عندما اصطفوا في صفوف الظلم. لقد قرر الله تعالى ﴿سُلْطَانًا﴾ للمقتول مظلومًا، والسلطان كلمة متفجرة الدلالات، وسيعة المعنى لا حدود لسعتها الدلالية بدليل استعمالها نكرة في الموضع الشريف.

والله تعالى قادر على أن يحوِّل أوضاع الناس، وينتقل بها من حال إلى حال، إنه قرر، وفرغ من قراره، وأكده، ودعمه، ساعة قال :

(فقد جعلنا)، فالجعل تحويل، وتغيير، والماضي يقين، وفراغ من الأمر، واستتباب له، و «قد» صانعة لدعم اليقين، مقوية له. الآية العظيمة تتجاوز بمعجمها المهيمن، والمحوّل، وبتركيبها المسيطر المعتمد لبني التوكيد والتقوية بالفعل، والحرف جميعًا حدود الوعد بالانتصار للدم المغدور إلى - حدود التحذير من الإسراف عند الانتصار لهذا الدم المظلوم.

والآية العظيمة تتجاوز حدود الانتصار لدم بعينه إلى آفاق الدم الإنساني، لأنه جليل، ولأنه إنساني، إن الله قرر الانتصار للدم المغدور المظلوم أيًا ما كانت هويته، أو جنسيته، أو لون بشرة الذي يتدفق في بدنه، الله يقول ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ و «من» في برامج النحو العربي اسم من أسماء العموم، للرجل والمرأة، والواحد والواحدة، والقليل، والكثير، وقُتِل بالبناء لغير فاعل إمعانًا في الانتصار للدم المغدور غير المتعين، الدم الإنساني فقط أيًا ما كان حامله، والقيد المحقق للانتصار للدم أن يكون سفكه ظلمًا، وأن يكون هدره غدرًا، وأن تكون إراقته افتراءً، ووحشية، الانتصار واقع لا محالة بضمان العقد الموثَّق بـ «إن» التي للتوكيد، وبضمان الفراغ من إقراره بكان التي تبرهن على انعقاده، ووقوعه في علم الله تعالى يقينًا، الانتصار واقع لا يقطعه زمان بدليل انفتاح الوعد به على الزمان جميعًا، وبدليل غياب القرائن الزمنية المقيدة له. الله وعد، والله قرر، والله انتصر للدم المغدور، والله لايخلف وعده، ولا يتخلف قراره! آمنوا بالله وحده!

(30)

يقول تعالى : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ هذه آية جليلة ترسي قاعدة صلبة في الحركة للحياة وفق المنهج الذي ارتضاه الله.إنها تقرّر أن سبيل النصر محدد بمنهجية واضحة تتلخص في مداومة الإقبال على الله، والانكسار بين يديه،

والافتقار إلى عفوه وغفرانه، وهو الأمر الظاهر في الدعاء ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾، ومداومة مراجعة النفس، والاجتهاد في محاربة الذنوب، والتخلي عن طريقها، وهو الذي ظهر من الدعاء﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ التوقي من الإسراف في الأمر، شططًا عن الطريق، أو استهانة بحدود الطريق، أو تفريطًا في مطالب الطريق، أو إفراطًا وزيادة على محددات المنهج والطريق بتأويل ودعاوى، والثبات على المنهج، وعدم الشك فيه، والركون إلى المباديء المستقرة، وعدم الالتفاف عليها، الله يقول﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وهو أمر دائم لأنه جاء بصيغة دالة على زمان مبهم ما كان ولا وقع! بعد هذه جميعًا، وبعدها مجموعة، وبعدها غير ناقصة، وبعدها مسلّمة يكون نصره الذي لا يتخلف، ﴿وَانصُرْنَا﴾ إن النصر متحقق بالتمايز عن أهل الباطل، ومتمايز بمخالفة الطريق الذي يسلكونه، وبمعاندتهم في خطوات منهجهم، وباليقظة الماهرة، والتخطيط المستوعب للزمان والمكان والبشر والموارد والأحوال والتاريخ والمكر الذي يمكرونه، والخداع الذي يحسنونه!

(31)

يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذه آية من آيات الوقت والزمان؛ لأنها تدعونا إلى ما به مواجهة الشدائد والمحن، والكوارث والنكبات. الله ينادي المؤمنين من دون غيرهم، ويناديهم بغير المشتق منعًا من التحول عنهم، والله يأمر الذين آمنوا واطمئنوا إلى ركنه تعالى، وصدقوا بموعوده أن يصبروا ويحتملوا المكاره، وأن يصابروا فلا يتركوا دين الله، ولا يخذلوه، وأن يرابطوا فيستمسكوا بالحق مع اجتماع أهل الباطل، وتكتلهم، وشغبهم على أهل الحق والخير والإنسانية والخلق الكريم، والله يأمر بالتقوى والاحتياط من الشر، والتوقي من السوء، وتحري الحلال، والامتناع من الحرام في العبادات والمعاملات، واجتناب الحرام في السياسة والاقتصاد والسلوك، إن طريق الفلاح والانتصار مستقيم، داني الثمرات، ظليل، يلوح الخير بعد قليل من السير فيه، إن طريق استعادة الحق يُولَد في النفس أولًا، وطريق كسر الباطل يولَد من رحم الإرادة أولًا، وطريق النور يبدأ من التحمل والتجلد، واستجماع صفات الرجولة والمروءة.

(32)

يقول تعالى ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَ﴾ هذه آية تأخر تدبرها، وتأخر تدبرها جرّ مشكلات ومحنًا، على أن تأخر تدبرها غير مانع من معاودة النظر فيها، وتصحيح المسارات على هديٍ مما ورد فيها، وتضمنته.الآية تعلن أن النجاح وليد التجرد والاعتراف بملكات من نتصور أنهم دوننا في المنزلة والطبقة، إن نبوة موسى لم تمنعه من تقدير مواهب غيره، ولم تمنعه من توظيف مواهب الخلق، طلبًا لأداء المهام على أكمل وجوهها. هارون ظهر في سياق القصص القرآني مالكًا لما لم ير موسى نفسه مالكًا له، فدعا الله أن يجعله بجواره، مؤازرًا، وشريكًا، وهارون كان مبينًا بدرجة أعلى من غيره، ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾! كيف غاب عن نفر من المعاصرين من العاملين للإسلام أن يفيدوا من تقدير موسى لبيان هارون؟!وكيف غاب عن هؤلاء الذين تصدروا أن يراجعوا سياقات الحكم في الذكر الحكيم، وهو أصدق السياقات جميعًا؟ كيف غاب عمن نصبوا أنفسهم قادة للعمل الإسلامي أن يوجهوا فريقًا من أبناء تياراته لدراسة الفنون، والإعلام، والدراما، والمسرح!؟ كيف غاب عنهم وعي المؤسس الرائد الذي كان واسع الأفق، ملهم الرؤى، قريبًا من روح التصور

الإسلامي الحضاري؟! سؤال موسى منبيءٌ عن قيمة البيان، وقيمة الإعلام، وقيمة التجرد، وقيمة تصدير أهل الكفاءات، وقيمة التواضع العملي، وقيمة المشاركة في النهوض بالحكم والعمل للأمة، وقيمة تقاسم القيادة، واحترام الاختصاصات!
المحنة الراهنة كسبُ أيادٍ لم تتناول الكتاب العزيز بما هو واجب نحوه.
المحنة الراهنة كسبُ عقول خانت مواريث الوحي عندما لم تُعمل نتائجه في واقع الحياة.
المحنة الراهنة كسبُ قلوب لم تَمِلْ مع الحق، وكسبُ نفوس أخرت الإفادة من مواهب أصحاب المواهب، وأخرت استثمار أصحاب البيان، ولم تتنبه لقيمة الفنون والإعلام، وأمامهم نبي من أولي العزم من الرسل يسأل الله استوزار رجل يحوز مواهب البيان، من أجل إعلام قوي، في مواجهة إعلام الطغيان!

(33)

يقول تعالى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذه آية جليلة القدر يتغافل عنها خلق كثيرون، وهي واقعة بعد الفرح المريض الظالم، وواقعة بعد نسيان ذكر الله تعالى، ونسيان ما أمر به سبحانه، وواقعة بعد الاستكبار في الأرض، والتعالي البغيض اغترارًا بالقوة الغشوم، وبعد انفتاح الدنيا، وانفتاح كل شيء على الظالمين.الآية بعد الفاء مؤذِنةٌ بأن ما بعدها محمول على العقاب المترتب على ما كان ووقع، وأن ما قبلها هو الطريق المفضية إلى المصير المنشود للظالمين! الآية تفتتح أمرها بعد الفاء بكناية مزلزلة، تعلن عن المحو التام، وتعلن عن إزالة كاملة لكل الظالمين، وتعلن عن أنها تتعقبهم، وأنها لن تبقي منهم أحدًا، ولن تذر منهم أثرًا. وهي كناية منبئة عن احتقار، وعن إهانتهم، وعن الزراية بهم، وعن خفض رتبتهم، وعن تأخير طبقتهم، وعن تراجع نوعهم، وعن إلحاقهم بما دون البشر من الأنواع! والآية تتوعد الظالمين في كل جيل، وتَحكّم الظالمين في أي بقعة أو مكان، ومن أجل ذلك استعملت الآية :الذين ظلموا، ولم تستعمل :الظالمين، لأن الظالمين مشتق، واستعمال المشتق مؤذن بالتعيين، ومؤذن بالانقطاع! الآية نص في البشارة، والآية نص في الفرح القادم، والآية نص في البهجة الساعية نحو أهل الإيمان، والآية نص في زمن البراءة الذي يطل على المقهورين، والمغلوبين، والمظلومين، والمغدورين! ويوم تحل البهجة، ويوم يبرأ العالم من الظالمين والغادرين والمستكبرين، تتنزل النعمة كاملة، وتشيع الفرحة العامرة، وتتجلى رعاية الرب الكبير الكريم سبحانه! الله قال، فصدّقوه، والفرحة قادمة فاستعدوا لها بمجامع المحامد كلها!

(34)

يقول تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ كثيرًا ما يقسم الذكر الحكيم بالصبح إذا تنفس، وبالصبح إذا أسفر وأضاء الوجود، وذلك لأن الصبح علامة لا تخطؤها عين، عند عموم النور والضياء، وهو ما لا يقدر أحد على إنكاره أو إخفائه. ولكن في القَسم بالصبح دلالة أخرى، تبعث الأمل في النفوس، الصبح إقبال بعد إدبار، والصبح حياة بعد موت، والصبح حضارة بعد خمول، والصبح أمل بعد يأس، والصبح انتصار بعد هزيمة. الصبح في الثقافة العربية نشاط، وحيوية، الصبح أمل، ترقبوا الصبح، وتهيئوا لانبلاج ضيائه، واعملوا لميلاده، والله تعالى مؤذن بهذا!

(35)

يقول تعالى ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)﴾ هذه سورة جليلة القدر جدًا، منيرة للطريق جدًا، كاشفة عن رحمة

الله تعالى. السورة الجليلة درس عبقري في النذارة، والنذارة هي الباب الوسيع للرحمة الإلهية. السورة تنذر الإنسانية بأن أمرها مشمول بالخسران، وتوشك أن تقرر أن مرد الخسران المطيف بها، مأتاه من الأنس المطغي، أو من النسيان المضيع. ثم إن السورة تفتح باب الأمل في النجاة من هذا المصير المرعب، وتفتتح الإعلان عن هذا الأمل بحرف الاستثناء ﴿إِلَّا ﴾، إلا :هي عنوان الأمل، وعنوان النجاة، وعنوان البشرى! وطريق النجاة في تجدد الإيمان، والعكوف على العمل الصالح، والانضمام للحق، ومخاصمة الباطل، والصبر في البابين جميعًا، الصبر في منع النفس من السقوط، والبهيمية، والغدر، والخيانة، والصبر على التمسك بالحق، والتمسك بالإنسانية، والارتقاء في مدارج الملائكية. السورة تنذر، وتعلن أن ميدان الخسران ممتد، محيط، مستغرق،عاصف، قاصف، والسورة تعلن الفرصة المواتية للنجاة، بالإيمان، والصلاح، والانحياز للحق، والتزامه، والصبر على طريقه! النجاة ممكنة، والخسران مستعمرة الذين فقدوا طريق الله!

(36)

يقول جل وعلا: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ هذه آية بديعة تعلو نظمًا، وترقى في باب البيان سمتًا، ورجائي ممّن يطالع تأملي لها أن يستقبلها في سياق من العموم، ويغمض الطرف قليلًا عن حدود سياقها الضيق.الآية تفيض بنوع إيقاع جليل، ساكن، هاديء، وضيء، والآية مثال فريد للإمكانات التي تسكن بنية النصوص غير الشعرية في تاريخ العربية، ولم يتنبه لها أحد في زحام الانشغال بإيقاع الشعر! الآية مدهشة من لحظة الإسناد التي أسند فيها فعل الإشراق إلى الأرض في إدهاش عجيب، مزلزل، أخَّاذ، مقتحِم، والإشراق دلالة متجاوزة، متفجرة، تحتوي النور، وتزيد عليه، وتظهر الأرض فيها عروسًا يوم جلائها، وزفافها، وضيئة، حلوة، خصبة، زاهرة، عطرة! وسر ذلك ماثل في الباء، التي تكتنز بالمعاني! الإشراق الزاهر سببه نور الله الغامر، وآلته نور الله العامر، وتعديه إلى الأرض بقوة الله القاهر! للباء حديث عذب مطمئن في الآية، يعالن معترفًا بقدرة الرب ذي النور الباهر، ويبعث بالأمن في نفوس المتعبين على أرض الله التي تتشرب النور فتشرق، وترتوي بالنور فتزهر، وتعب من النور فتشدو وتتعطر! الرسالة واضحة، والنور الساطع حاسم، والظلم منقطع، ومصير الظالمين مروع، محزن، مؤلم، قاصم! اطمئنوا يا ملح الأرض!

(37)

يقول تعالى ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ هذه آية جليلة تمثل قاعدة قرآنية ثابتة، الآية تعالن بأن العمل هو المحك، وتعلن أن المؤمن ينبغي أن يكون ثابتًا على مبدئه، يطمئن ثم ينطلق، الآية تعالن أن صاحب المنهج، وأن المسئول عن بلاغه ثابت على موقفه، تأملوا إعلانه: إني عامل، الجملة اسمية بلا قرائن زمنية توقفها عند حد بعينه، لتبرهن على أن الثبات يجب أن يكون استراتيجية دائمة، وأنه لا تحوَّل عنها، وأنها لا تتأثر بما حولها، زيادة، أو نقصًا، هدوءًا أو صخبًا، انتصارًا أو انكسارًا، التفافًا، وانفضاضًا! والآية تستصحب التوكيد بأن؛ منعًا من الشكوك، أو التوتر، أو التراجع، التوكيد بأن عباءة تستر عورات النفوس التي تتربص وتتحين الفرص للنفاق، وتغيير المواقف! الآية تقرر أن ثمة طريقين: طريقًا اختار مواجهة الحق، والركون إلى الشر وإلى الدنيا، وهو فريق يستوي في قوائمه من كان قائدًا، أو رائدًا، أو داعمًا، أو واهمًا، أو مجادلًا عنه، أو مدافعًا، أو متوقفًا، أو ساكتًا راضيًا، كلهم فريق واحد، وطريقًا آخر في صف الحق مبتلىً، أو مطاردًا، أو مستبعدًا، أو مُضيقًا

عليه، أو محارَبًا، أو خائفًا، أو رافضًا، أو متعاطفًا، كلهم فريق.والله تعالى يعد، ووعده لا يتخلف أبدًا، أن العاقبة للذين يثبتون، وينتصرون للحق، ويحتفظون بإنسانيتهم، ولا يأبهون لمخاوف الزمان، أو لمطاردة الشرور، أو لتضييق، واستبعاد، وإقصاء، ومنع! العاقبة مستقبل زاهر للحق وأهله! العاقبة إشراقة الشمس في الصباح القريب!

العاقبة فرحة النفوس التي استمسكت بالأمل، وتعلقت بالنور، وآمنت بالله القادر!

العاقبة هي البهجة التي لن تنقطع؛ لأن الكلمة الخاتمة تعلن بهزيمة الظالمين! الله قال، الله وعد، صدِّقوا الله.

(38)

يقول تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ هذه آية من آيات الوقت، تفرض الظروف معاودة تأملها، والتنبه لما فيها، ويسكنها من معان مهمة، وحقائق ساطعة، الآية تخبر عن حقيقة وحدة الأمة، وحقيقة تماسكها، وربما أشارت إلى شيء من محددات هذا التماسك، وهذه الوحدة، صحيح أن للأمة في المعجمية العربية، والقرآنية معان متعددة، تدور حول الدين، والشريعة، ولكنها أبدًا لا تبتعد عن المفهوم المعلن لها بما هي مجموع من الخلق متمايز من غيره، الآية تعالن بواحد من أخطر محددات الهوية، وهو المحدد المعلن في الدين، والشريعة، إن الآية تخبر عن حقيقتين ظاهرتين، هما: الأمة بما هي المجموع البشري المجتمع الواحد المتمايز في تكوينه العقلي والثقافي، والأمة بما هي الدين الواحد، والشريعة الواحدة الصانعة لأهم محدد للهوية، وهو الوحدة الفكرية والثقافية، ثم إن الآية تنتهي إلى الطريق العملية الصانعة لهذه الأمة المتحدة، ساعة تأمر بالإقبال على الرب المنعم، المتربب لخلقه، الراعي لهم، وساعة تأمر بعبادته، قيامًا بالدليل على الدعوى الإيمانية، الآية تفتح الباب إلى أهمية قراءة الكتاب العزيز من منظور جديد يضبط دراسات الروح القومية، الأمة الواحدة حلم ممكن.

الأمة الواحدة أمل محتمل.

الأمة الواحدة حقيقة كل عصر.

الأمة الواحدة معيار تصحيح الطريق.

الأمة الواحدة التحقق الفذ والعملي للتوحيد.

الأمة الواحدة التنزل الواعي للفهم الصحيح للعبادة.

الأمة الواحدة منتهى حصيلة ما أنجزه العقل المسلم أيام عافيته الحضارية.

الأمة الواحدة نداء السماء الدائم!

(39)

يقول تعالى﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ هذه آية من آيات الوقت، وآية من آيات الزمان عندما تتكاثر الآلام على الأبرياء!

الآية تشرح سلوك نبي كريم تجاه ما لحق ابنه الصغير البريء من آلام نفر فقدوا إنسانيتهم، واغتالوا الرحمة في قلوبهم، وانساقوا لغل قاتل، وحقد مروع، وكراهية بغيضة انحطت برتبتهم!

الآية تقرر أن منهج السماء المُرضيّ ماثل في التعاطف الحي النبيل مع ضعف الضعفاء، وعذابات المعذبين من أبرياء خلق الله تعالى!

الآية تعالن بأن القلوب الرحيمة تتقطع للإنسانية المعذبة، وتتفطر للطفولة المهدرة، وتتمزق للمبعدين!

الآية تنتصر لقيم الشعور الحي بألم المتألمين، وتعلي من قيم الرقة الظاهرة لما ينزل بالأبرياء، والأنقياء، وأهل الصلاح الأوفياء!
الآية تعالن برفض الغل، والتشوه النفسي القاتل الذي يسوّد وجه الحياة.
الآية ترفض الحقد الأسود الذي يتآمر على الأنقياء الأطهار لأنهم أنقياء وأطهار!
الآية تفضح نفوسًا لا تحب، وتعري قلوبًا سقطت.
الآية تنصح بمخالفة طريق الذين ارتضوا طريق الرضى بعذابات الناس، ولم تترفق بآلام الإنسان.

الآية تأمر بتجنب طريق هؤلاء الذين انساقوا وراء التشوه، والحقد المريض!
الآية تقول :ابكوا من أجل الأبرياء المعذبين المبعدين المكلومين.
(40)
يقول تعالى :﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ هذه آية من آيات الزمان والوقت، تنهى، وتتجاوز بنهيها حدود النهي إلى التحذير، والنذارة، والتبصير بالطريق. الآية تحذر من مغبة الركون والميل والاعتماد والاستناد والاطمئنان إلى الذين ظلموا. والذين ظلموا أنواع متراكبة يجمعهم نوع العُصاة الذين انحطوا عن مقامات التقوى، وسقطوا بعيدًا في وحل الحيوانية، وارتكسوا في مستنقع معاداة الإنسانية والطهر والبراءة والنقاء وعادوا أهل الإيمان، واستضعفوا جانبهم!الآية تحذر من سوء عاقبة الافتتان بقوة الذين ظلموا، ومن الافتتان ببطش الذين ظلموا؛ لأنها قوة زائلة، وبطش منكسِر بعد قليل؛ ولأنها قوة فوقها قوة القادر سبحانه؛ ولأنه بطش دون بطش المقتدر سبحانه! النيران موعودة للذين يركنون ويميلون ويعتمدون ويفوّضون ويحرّشون وينافقون ويدعمون الذين ظلموا أنفسهم ساعة اغتالوا إنسانيتهم، ثم ظلموا ملح الأرض من الأطهار الأنقياء الأبرياء من الأطفال والبنات والعجائز والشيوخ، والذين رأيناهم يذرعون الأرض في خدمة الناس، ويملأون المساجد رغبة ورهبة لرب الناس. وهي موعودة أيضًا للذين ظلموا. الآية تقرر أن النصر لن يكون لواحد من فريقي الذين ظلموا وعصوا وارتكسوا، أو الذين ركنوا ومالوا واعتمدوا ونافقوا وفوّضوا وارتاحوا إلى جناب الذين ظلموا. النصر للذين لم يظلموا، ولم يخونوا الله ورسوله ويخونوا إنسانيتهم! النصر للذين لم يركنوا ولم يميلوا ولم ينافقوا ولم يحرّشوا ولم يفرحوا بالدم الطاهر الزكي الذي سُفك، ولم يتألموا للطفولة البريئة التي عُذبت، وللأنوثة الخجلى المؤمنة التي انتُهِكَت! النصر للذين آمنوا، ولم يظلموا، ولم يركنوا للذين ظلموا! النصر للذين قاوموا، وحافظوا على إنسانيتهم، وتألموا للدم الحرام، وللطفولة المعذبة، وللأنوثة الكريمة المهدرة، وللمبعدين، وللمطاردين، وللمحاربين، وللمضيَّق عليهم! النصر من الله للذين رعوا حقوق الله!
(41)
يقول تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ هذه آية جليلة يحتاجها الناس اليوم ليعيدوا وزن أنفسهم على هديها، ويعاودوا عرض انتماءاتهم على ميزانها. الآية تعالن بالمنّة الكبرى التي انتقلت بالإنسانية من الوهاد والسقوط والانحطاط والظلام والضياع، إلى القمة والارتقاء والعلو والنور والاستقامة، والآية تعالن بأن بعث محمد ﷺ الذي هو الرحمة العامة والخاصة كان منة وفضلًا ورزقًا وخيرًا، وأنه من الناس، وأنه أشرف الناس، وأنه أرفعهم، وأعلاهم إنسانية، وأكثرهم نفاسة! الآية تنتصر للذين اتبعوه، وتعلموا منه،

وتذكروا هديه، واستصحبوه، واستحضروه، وداوموا على تلاوته ومذاكرته واسترجاعه والاقتداء به، والآية تقرر أن المعيار في الانتساب إليه ﷺ ماثل في التطهر، والتزكية، والإنسانية، والانتفاع العملي والإيجابي بما جاء به من وحي وأخلاق.
ليس من النبي من خان! ليس طاهرًا من سفك الدماء، ليس زاكيًا من فرح بالنار، ليس مستصحبًا حكمة ماجاء به من غدر، ليس قد تعلم شيئًا من رضي، وبارك، وهلل، وسعد، ورقص على الأشلاء!
ليس إنسانًا من سوّغ، ولا من فوّض بالباطل أهل الباطل ليفتكوا بمن عاش بعيدًا عن الباطل!
ليس مؤمنا من أسقط ميراث النبوة، فلم يتلُ ما جاء فيه من إنكار تعذيب الخلق، ليس مؤمنا من تنكر لميراث النبوة الخالد ففرح بالتعذيب والتشريد.
ليس مؤمنًا كل من أعان على الطاهرين، وكل من أشاع الخنا وروّج للماجنين.
فيا كل الذين يتطهرون..
ويا كل الذين يتلون الآيات..
ويا كل المستمسكين بنور الوحي النبوي الإنساني المبين..... اطمئنوا!
(42)
يقول تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ هذه آية يجب أن تستعلن الآن، الآية تقرر أن الظلم هو الباب الواسع لإغلاق باب الطيبات على الذين ظلموا الخلق، وارتكسوا، وخانوا إنسانيتهم، واغتالوا قيم المروءة، وولغوا في البطش، وفرحوا بالفحش، وروّجوا للشيطان، الآية تفتح الباب وسيعًا أمام تأمل العقوبات التي رصدها الكتاب العزيز للظالمين في الدنيا والآخرة؛ لأن ذلك مهمٌ جدًا في الانتصار للحق، ومهم جدًا في الثبات على الحق، الظلم مصنع النار للظالمين في الدنيا والآخرة! آمنوا، وصدقوا! الآية وإن بَدا منها عطف على المظلومين، وترطيب لخاطرهم، وفتح لباب الأمل الوسيع كي يصمدوا، ويقاوموا، فهي نص في التحذير من مصير الذين ظلموا، وتخويف من مصير الذين يصدون عن سبيل الله تعالى، وما أكثرهم في هذا الأوان، والنذارة للذين يأكلون باسم الحرام، وهم منهيون عن أكل الحرام، والاستمتاع بالحرام، ومشايعة الحرام، وخدمة الحرام!
(43)
يقول تعالى ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هذه آية جليلة القدر جدًا، وبديعة جدًا، ومطمئنة جدًا، ومحفزة جدًا. الآية تملأ النفوس أملًا، وتعمر القلوب بالأنس بالحق، والاطمئنان إليه. الآية تقرر أن النور غامر، وأنه قريب جدًا، وأنه سيكون دائمًا، لا يقطعه أحد، ولن يمكنه، ولن يستطيع. الآية توحي بتفشي النور، وتؤكد ذلك، وما الفعل ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ الماضي، وبنيته التي يتقدم فيها صوت الشين بتفشيه ليدعم ما نقول إلّا قرينة على ما نراه ظاهرًا في الآية. الآية تعالن أن الباطل منقطع، وأن عمره مهما امتدت الدنيا قصير، وأن الله يحصي على الظالمين، ويترصد الظالمين، ويجمع لهم الدليل بعد الدليل حيًا شاهدًا على تورطهم في ما سقطوا فيه، وارتكسوا في حمأته، وأنه قائم لن يفلتهم ساعة ينصب الميزان، يوم الفصل!والآية تعالن بأن يوم الفرح الممتد الذي لن ينقطع قادم، سيظل المؤمنون من الذين يتمسكون بالحق! النور يتقدم نحونا، وأشعته المتكاثفة ترنو نحو أهل الحق، وعما قريب يلتقي النور بالأرض ويتعانقان ليولد الإشراق العامر الغامر المنبسط المتفشي الحي النامي الرحيم! فيا

أهل الحق بشراكم بالنور، وبشراكم بالإشراق!ويا أهل الباطل والظلم بشراكم بالظلام والإغلاق! الله باق، والإشراق موعود به.. فاطمئنوا، واعملوا!

(44)

يقول تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ هاتان آيتان من آيات الوقت، والمرحلة، والزمان الذي يظلنا. الآيتان تعلنان أن العناية الإلهية يقظة أبدًا، تلتقط ما يقال، وتسمعه، وتأمر به فتدونه، وتكتبه، كتابة الجامع المحصي الذي لا يفلت شيئًا، وكتابة المسجل الذي لا ينسى شيئًا. ثم هما تعالنان بأنهما تضمان إلى المحفوظ من المكتوب جرائم أخرى هي قتل الأطهار الأنبياء، ومن معهم في الطريق بغير حق، ولا ذنب، ولا جريرة، ولا علة بادية في الناس أو خافية. الآية تربط بين القول الذي يمنح الرخصة في القتل، وبين القتل الذي هو ترجمة للقول المريض الذي أعلن التفويض. الآيتان تكشفان عن المصير، الماثل في عذاب الحريق، وليس أي حريق! الآيتان تعالنان بأن اليد التي سطّرت، وكتبت، وشرحت، ونافقت، ودافعت، وأن اليد التي صفقت، ولوَّحت، وأشارت، وأن اللسان أخو اليد الذي دعا، وهلل، وشجع، كلها في الجريمة سواء. عذاب الحريق بعض آثار عمل اليد التي كتبت، واليد التي سحلت، واليد التي بطشت، واليد التي سجنت، واليد التي قتلت، واليد التي زوّرت، واليد التي خانت، واليد التي غدرت! عجيب، ثم هو عجيب جدًا أن تجمع الآيتان بين القول والقتل، هما أخوان، القول أخو القتل، بقرينة القاف المفتوحة في الفعلين، وبقرينة الدلالة المعجمية التي تربط بينهما، وبقرينة الجناس الجزئي فيهما، القول حركة مفضية إلى حركة القتل! الله لا يعرف الظلم!الله لا يُنسب له ظلم! يا أهل الباطل قولوا، واقتلوا، فالله يكتب ما تكتبون، والله يكتب ما تقتلون!

(45)

يقول تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ هذه آية كأنما تتنزل اليوم، وهو شعور سببه كثرة الجراح، وسببه كثرة الآلام، وسببه كثرة الوجع، وسببه كثرة الدم المنزوف، الآية تدعو المؤمنين أن يخاصموا الانكسار، وأن يجافوا الوهن، والضعف، الآية تأمر بألا نتوقف عن العمل، وألا نتوقف عن مواجهة الباطل، الآية تنهى عن الضعف، وتنهى عن الخَوَر، وتنهى عن السقوط، وتنهى عن التراجع عن نصرة الحق، وتنهى عن التوقف، وتنهى عن قطع طريق الصبر، والمقاومة، والمواجهة لكل باطل، وفاسد، ولئيم، مريض القلب والعقل، الآية تربط على القلوب التي يحدثها الشيطان، ويراودها كي تتوقف، وتصمت، وتضعف، بما يقرره، ويعالن به :الآلام في الفريقين، والجراح بالقسمة، والوجع موزّع!الآية تقرر أن فريق المؤمنين يزيد مع آلامه وجراحه التي هناك مثلها في صفوف عدوه شيئًا لا سبيل إليه عند عدوهم، هو رحمة الله، وهو رجاء الله! الله يربط على قلوبنا!الله يقول لنا.. رجاؤكم فيّ لن يخيب! فيا أهل الآلام من المؤمنين، ويا أهل الجراح من المؤمنين تعلقوا بالرجاء في الله! ويا أهل الآلام من المؤمنين، ويا أهل الجراح من المؤمنين، استمروا، ولا تنكسروا! الانكسار في مواجهة الباطل هوان! الانكسار في مواجهة الباطل خذلان لميراث السماء! الانكسار في مواجهة الباطل خيانة، وعصيان!

(46)

يقول تعالى ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ هذا جزء كريم جدًا، من آية كريمة جدًا. الآية تقرر أن ما يقوله الخلق وهو مخاصم للحق دعاوى فارغة، ومزاعم عما قليل ساقطة. الآية تعلن أن الحق وحيد، وأنه من الله نازل، وأنه مركوز في التنزيل، وأنه مخبوء في حنايا بلاغ نبيه المعصوم. الآية تعالن بأن ما يقوله الأدعياء بسبب شهوة ساقط، وأن ما يسوقه المجرمون خوفًا، وفَرَقا، ورعبًا، وفسادًا، وانبطاحًا هو رغاء أفواه منتنة، وهو زبد قلوب سوداء، وهو مجون عقول سكنت رءوس السفهاء. الآية تدعو إلى علم يرعى الحق، ويهتدي بهداه. والآية تتبنى إعلامًا ينطق بالحق، ويخاصم الشهوات المريضة، ويجافي المجون والبذاءة. الآية نور يضيء العقول والقلوب، ويمسّك بمنارات الطريق للذين يرومون النجاة. الله يقول الحق، فالتمسوه عنده، بين سطور وحيه. والله يقول الحق سبيلًا للهداية فلا تضلوا عن الطريق. الآية تسقط السفهاء، واللقطاء، والأدعياء ومن كانوا للشياطين أبناء، ورفقاء! الله يقول الحق، وأعداؤه يقولون الباطل!

(47)

يقول تعالى ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ هذه آية من آيات الزمان الذي يُظلنا، نزلت في الوعد ببدر الكبرى. الآية تقول إن الله ينتقم من الذين طاردوا المؤمنين، وتقول إنه منتقِم من الذين صادروا أموال المؤمنين بعد إذ هجّروهم منها، واضطروهم للخروج، والهجرة، والبعاد. الآية تصرخ بغضبة الجليل سبحانه على الذين عذبوا المؤمنين، وأجْلوا المؤمنين من قراهم، وبيوتهم، وشتتوا شملهم، وحرموهم الأمان، ومنعوهم السلام، وضيقوا عليهم! الآية تعالن بتمدد الانتقام الإلهي، وتقرر وقوعه، وتفشّيه وانتشاره في أوساط الذين قهروا المؤمنين، وقمعوهم واستذلوهم، وأهانوا معتقداتهم، ومنعوهم حرية العبادة، وقصفوهم، واستأصلوا ألسنتهم، ومنعوهم حرية التعبير، وحرية الدين! ولأجل ذلك استعملت الآية "نبطش البطشة»؛ لتوسع من جغرافية الانتقام بدليل التفشي والانتشار الذي تخلقه الشين في الكلمتين، وبسبب الإطباق الموجود في الطاء في الكلمتين! الآية تقول إن بطشة الله تعالى بقريش المجرمة وقعت ومعهم الحليف الإقليمي الداعم! الآية تقول إن المؤمنين انتصروا في بدر، وأنذرتهم بطشة الله تعالى الكبرى على الرغم من رضى النظام العالمي القديم، ومباركته للدم المسلم المسفوك، ولتهجير المسلمين، ولحصار المسلمين! الآية تعلن أن البطشة الكبرى، والهزيمة المروّعة المفاجئة نزلت بقريش وهم أكثر عددًا، وأعلى عتادًا، والمؤمنون مستضعفون، مهاجرون، والدعم الإقليمي مؤازر لعدوهم، والنظام العالمي يبارك وحشيتهم، ويسكت عن ظلمهم، وافتراهم، واستبدادهم! إن الذي أوقع البطشة الكبرى بقريش يوم بدر مازال هو الله مولانا، ومولى كل مستضعف، ومولى كل مطارد، ومولى كل مغدور!يا أهل الإيمان، الله قادر وبطشته الكبرى ما تزال ممكنة! الآية تورد الخبر
مؤكَّدًا حتى لا يتشكك أحد، والآية تورد التهديد بصيغة الجمع ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ تشديدًا، وتوكيدًا، وتغليظًا، وتخويفًا للذين عَذبوا، وطاردوا، وضيقوا، وأخرجوا المؤمنين!الانتقام في خزينة السماء، وهو واقع بكل قريش، في كل زمان! الانتقام في خزينة السماء ومفاتيح خزائن السماء في يد الله الجليل العادل الرحيم بالمؤمنين، الجبار على الظالمين الذين قتلوا، وسفكوا الدم، وطاردوا الخلق، وهجروا الناس، وآذوا أهل الطهر والبراءة والنقاء، وصادروا أموال الناس من الذين آمنوا! الانتقام باق في خزائن السماء!

(48)

يقول تعالى ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ هذه آية عجيبة جدًا، ومزلزلة جدًا، الآية تتجاوز اليقين في الانتصار للمستمسكين بالحق إلى مقامات طلب التمهل في استنزال العذاب بهم، الآية تقول إن الله يملي للظالمين كي يزدادوا إثمًا، وتقول إن الله يحصي لهم أنفاسهم في حياة الظلم، ويربي لهم حسابات الظلم، الآية ترطّب على قلب المرابطين، والسائرين في طريق النور، وتعلن أن عذاب الله الجبار واقع بالظالمين الذين تشوهت نفوسهم، الآية تبعث برسائل الصبر، وبرسائل النصر، يا أهل الحق اصبروا، ولا تتعجلوا ربكم، يا أهل الحق.. رابطوا واطمئنوا!

(49)

يقول تعالى ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، أَهْلَكْنَاهُمْ ،إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ هذه آية يلزم استصحابها اليوم، ويلزم تأملها في اللحظة الراهنة. إنها آية تتذرع بالسؤال ولا تريده، وتتوجه إلى استثماره قاصدة الإنكار على من لا يرى هلاك المجرمين في كل زمان. الآية تلوذ بسوابق الفضل التي منّ الله بها على عباده المؤمنين في التاريخ الغابر، ويبعثه من مكامنه ليربط على قلوبهم، وينعش آمالهم في انكسار الظالمين. الآية تقول - بمنطق يسير - الذين أجرموا قديمًا نالهم نصيبهم من الهلاك، والذين أجرموا اليوم سينالهم النصيب الوافي من الهلاك في الدنيا، قبل العذاب في الآخرة، ذلك أن الذي أهلك المجرمين ممّن سبقوا في التاريخ هو القادر سبحانه، الحي سبحانه، العادل سبحانه، وكذلك فإن الذين أجرموا الآن وتنكروا للنعمة، والحرية، والطريق الإنسانية وقعوا في ما وقع فيه مجرمو الأمس، فحق أن تتنزل فيهم الآية من جديد! الآية تذكر أن الهلاك في خزائن السماء يتخايل، وهو عما قليل في هذه الدنيا نازل، ومحيط بمن فعل فعلة السابقين ممن أجرموا، وغدروا، وتنكروا للنعمة، وفرطوا في بشائر الخير التي كانت بدأت تلوح أماراتها! يا أهل الإيمان، تنبهوا؛ فالهلاك تلوح علاماته آخذة برقاب الظالمين والمجرمين ومن كفروا بالنعمة وظاهروا أهل الباطل ممن منُّوهم الأماني، وخدعوهم! يا أهل الله، اركنوا إلى الله!

(50)

يقول تعالى ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ هذا جزء من آية جليلة كريمة محتاجة لفضل تأمل،هل كان النصر الذي تنزل على النبي الأكرم وقفًا على الهجرة؟ اللهم لا! إذًا، فتصور توقف الانتصار للنبي الكريم خلل من جهة العقل، ومن جهة الإيمان معًا! فإذا كان الأمر كذلك، وهو حق في بادي النظر، ومرجوعه ومنتهاه، صح أن نفهم أن انتصار الله تعالى للنبي الكريم قائم أبدًا، لا يخرمه تطاول الزمان، ولا ينال منه تكاثر اللئام! ومن عجيب أمر الآية أن تصوغ قرارها في صورة تركيب اسمي خالٍ من قرائن الزمان؛ لتجعل المعنى الذي يحمله التركيب باقيًا على الدوام، ويأتي فيه بضمير الفصل ليدفع توهم حمل ﴿الْعُلْيَا﴾ على النعت، ويخلصه للخبر، وهو خبر من فئة التفضيل في درجته النهائية، لن ينتصر أحد يخاصم كلمة السماء، ولن يرتفع مقام أحد يعاند كلمة السماء! استمسكوا بكلمة السماء!

(51)

يقول تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ هذه آية مدهشة كان ينبغي أن تستفتح باب علم جديد في العلاقات الدولية، قصرت في تأسيسه الحركة الإسلامية، وأهملت في استثماره في أزمنة التضييق عليها، ومحاصرتها. الآية تقرر الحاجة إلى اليقين في النجاة شريطة التخطيط واستشارة الحكماء في ماينبغي السير فيه من الطريق. الآية تقرر أن السبيل مرهونة بمقاومة تيار الخوف الذي جرف النفوس، وتدعو إلى تربية الأمة على مقاومة

تيار الخوف في النفوس والضمائر بربطها بالرب الواحد الذي يملك مقادير العباد ويتصرف في الناس جميعًا، الآية تقول إن النجاة من الظالمين حتمية كونية، لكنها مرهونة بسرعة اتخاذ القرار الصحيح، في الاتجاه الصحيح، ومباغتة الخصم، واستثمار الجغرافيا الصديقة، وصناعة جيل متخصص في العلوم السياسية والتاريخية. هل أدرك من حملوا الأمانة أنهم فرطوا في هذه الصناعات الثقيلة فتلاعب بهم!.

(52)

يقول تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ هل تأمل أحد هذه الآية الجليلة؟! هل رأى فيها أحدٌ طريقًا للنجاة؟!هل استدعاها أحدٌ في حومة الصراع الواقع؟! الآية صريحة في أمرها بالاستمساك بحبل الله الذي هو الكتاب العزيز، والكتاب العزيز يقرر أن الطريق إلى النصر ماثل في استصحاب المنهج، وماثل في استصحاب التطبيق الأمثل للمنهج الذي قام عليه النبي الأكرم، وورثه صحابته الكرام النبلاء. الكتاب العزيز يعلن أن الطريق محكومة، وليست مظلمة، وأن مقاييس النهضة والنصر واضحة المعالم، تتخايل أمام الأنظار والأفهام، تقرر: أن الطريق المستقيم واحدة، وأن سبيل تطوير الذات مفتاحها الإقبال على الله بما شرع الله نفسه، وأن القرآن منهج ضامن، وأن السنة الواسعة برنامج تنفيذي مدهش، وأن اختبار المنهج نجح نجاحًا مذهلًا، ويكفي تأمل منتجه في قراءة ما كان مما ظهر في جيل الصحابة عليهم الرضوان! وأن الوحدة عاصمة، وأن التفرق مهلك، وأنه لا سبيل من دون تآخٍ حقيقي، ومن دون محبة حقيقية، إن ديننا دين محبة، وترابط قلوب، ولين جانب، وتحدر دمع عند اللقاء، وصفاء نفوس لبعضها في الحل والترحال! كيف ذهل المعاصرون عن كل ذلك، وجرفتهم مناهج هي ضد إنسانيتهم؟! كيف انصرفوا عن مقامات الحب والإيمان، وسقطوا فريسة للشيطان الذي يطل برأسه من بيت الميراث التوراتي، والعلماني الذي خاصم وجه السماء؟!

(53)

يقول تعالى ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ هذه آية جليلة جدًا،وهي آية نزلت في قوم من مصر في زمان موسى عليه السلام، وهي آية نزلت في مقام الاعتذار الواهي الضعيف، وما أشبه الليلة بالبارحة! السامري ما زال يضل الجماهير، والسامري بنعومة خادعة زائفة يفتن القوم، فيسيرون خلفه، ويقذفون بثرواتهم في نيرانه، بعد أن أحكم الأكاذيب ليستميلهم، إن الآية جليلة جدًا؛ لأنها تعالن بأن السامري ليس رجل مرحلة بعينها، وإنما هو يولد في كل زمان، والآية جليلة لأنها تعالن بأن الجماهير التي سارت خلف السامري، فسقطت في وحل الضلال، وتمرغت في طين الفتنة ليسوا جماهير الزمان القديم، وإنما هم الجماهير التي تولد في كل زمان، والآية جليلة جدًا لأنها تقرر أن الثروات الحرام التي تملكتها الجماهير المضللة المفتونة التي يقذفونها في الحفر هي ذات الثروات التي يقذفونها في كل زمان في الحفر التي تحدد مع كل فاتن، ومع كل سامري! الآية جليلة جدًا، والآية فاضحة جدًا، والآية مرعبة جدًا، والآية مُطَمئنة، إن جلال الآية في انفتاحها الدلالي على الزمان، فموسى لم يزل بيننا يترجم عنه المستمسكون بالحق، والسامري لم يزل بيننا يوزع الفتنة، ويجمع من أيدي تابعيه الكثيرين ثرواتهم بمحض رضاهم، والحفرة التي تلتهم الثروات المجموعة ما تزال قائمة ماثلة! المشهد الاعتذاري الذي هرول إليه القوم قديمًا ما زال قائمًا تتبدى علاماته كل يوم، وهو اعتذار من مرضى،

منكسرين، مهزومين، أذلة، الآية تصنع تمايزًا عجيبًا بين الذين سقطوا، وبين الذين لم يسقطوا، الآية تحذر من مقام يضطر فيه الذين حُمّلوا أوزارًا وأثقالًا وذنوبًا من الزينة والسرقة والإضلال والفتنة إلى الاعتذار المهين! الله سبحانه لا يرضيه فعل السامري، والله سبحانه لا يرضيه فعل الجماهير الذين تابعوا السامري، والله سبحانه عادل لا يرضيه إلّا الحق ومتابعة الحق! يا أهل الحق اصبروا، فعمّا قليل سينفضح السامري، ويندم الغوغاء الذين تابعوه، وسيأتون معتذرين اعتذار المهانين! الله قال، فصدِّقوه!

(54)

يقول تعالى﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، هذه آية عجيبة، ربما فتحت الباب أمام فحص الاضطراب الذي يتفشى في الأنساق العلمية العربية التي باعت نفسها للشيطان، أو للمقاربات الغربية في علم النفس والاجتماع، وتنكرت للمصدر المركزي للأمة، وهو الكتاب العزيز، في تأسيس نظريات نفسية واجتماعية تفسر السلوك والاجتماع الإنساني على هدي من سننه، وآياته، الآية مع أخوات لها يمكن أن تُعَدّ مدخلًا تأسيسيًا لدراسة سيكولوجية الخوف في الاجتماع الإنساني، وتنزيل الآية على الواقع الراهن ربما يعين على فهم التشوهات السلوكية والاجتماعية التي أصابت قطاعات كبيرة من المصريين في هذه الحقبة المهزومة من عمر الزمان، الآية تقرر أن ارتفاع جدار الخوف يمنع من عمل العقل(كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ)، والآية تقرر أن هبوب عواصف الخوف تصيب الإنسان، غير المؤمن بقيومية الله تعالى، الذي لا ينبغي معه الخوف لدرجة الهلع، وانطماس مادة الاتزان، والسقوط في دوامة السقوط الحيواني الذي نرى ملامحه في الدلالة على الإنسان المخالف، والمشاركة في محوه، وتعذيبه، ومطاردته، الآية تقرر أن الخوف المريض يمسخ من يقع فيه، وتراه وقد فقد إنسانيته، وتحول إلى مسخ شائه (رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ)، وهي صورة بشعة، تدلك على مبلغ الجنون، والذهول الذي يصيب الخائفين، وهذا النفر من الخلق المخلوع، الخائف، الممسوس، المغشي عليه من الخوف هو هو الذي يستأسد على أهل الإيمان عندما تذهب غاشية الخوف، وتنقشع عواصفه، هذا النفر يعود شحيحًا، حادّ اللسان، قاسيًا، فظًّا، متعالمًا، إن الذين تصدوا لحكم الجماهير ممن زعموا وصلًا بفقه الإسلام، لم يكونوا فقهاء، ولم يحفظوا الأمانات، فتقدموا نحو سياسة الجماهير بغير فحص قوانين الاجتماع الإنساني في الكتاب العزيز، لم يدرسوا سيكولوجية الخوف لدى من تقدموا لحكمهم، فانقلبوا عليهم عندما جاء من أرعبهم، إن القدوم على الشيء بلا علم خيانة للأمانة.

(55)

يقول تعالى﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ نزل الكتاب العزيز للحياة، ونزل الكتاب العزيز للتزكية والعمران، وهو الذي يفسر العناية الجليلة التي يوليها لمنزلة الأخلاق في الحياة، ولتعايش الأجيال، وللمسئوليات المتبادلة، في هذه الآية الكريمة نموذج لمسئوليات الآباء نحو الأبناء؛ ذلك أن مخزون الخبرة، وفطرية المحبة يفرضان على الآباء أن ينيروا الطريق، ويمنحوا معرفتهم بالطريق للأبناء، الآية تشير إن أعظم الكنوز التي ينبغي أن يمنحها الآباء للأبناء هي المعرفة، والمعرفة الممنوحة في الآيات تتوزع على القوائم التالية:

أولًا: التقرب من الرب بأحب ما افترض على العبد (إقامة الصلاة).

ثانيًا: الإيجابية في الحياة(وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر).
ثالثًا: الجد في طلب الحياة، والرجولة والتحمل (واصبر على ما أصابك).
رابعًا: التواضع العملي (ولا تمش في الأرض مرحًا).
إن الله يأمرنا، ويأمر الأجيال التالية بشيء فوق التعايش، بالبذل، والمنح، والاستجابة للخير، والآية جزء من منهج أصيل لا يرى الركون لصراع الأجيال، ويرسي دعائم لألفة الأجيال، القائمة على بذل الكبار، واستجابة الصغار، أولادنا مصدر للفرح والبهجة، فليكن فرحًا ساكنًا وبهجة آمنة.
(56)
يقول تعالى ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هذه آية قانون من قوانين الله تعالى المبثوثة في الوجود الإنساني، ومن المهم جدًا استصحاب سياقها المطيف بها، لقد جاءت الآية تعقيبًا على كلام المؤمنين الذين ساروا مع طالوت لمواجهة المستبد الغاشم جالوت بأنهم لا طاقة لهم اليوم بجالوت وجنوده، وجالوت يومئذ مستبد، قاتل، جمع المؤسسة العسكرية الباطشة في يده، وجنوده أراذل لا أخلاق لهم، ملكهم بالفجور، والمال، والسلطة المريضة، فكان أن قرر الله تعالى هذا القانون الدائم، كان جيش طالوت مؤمنًا، به من المهارات، وبه من الأفراد النبلاء من أشار الله إليهم، فيهم داود، لقد تقدم النفر القليل، مستصحبين ما يلي:
أولًا: الإيمان بالله تعالى.
ثانيًا: تمكين الشباب.
ثالثًا: الصبر.
رابعًا: التضحية.
فكانت النتيجة المذهلة (فهزموهم بإذن الله).
إن الهزيمة التي لحقت جالوت متوافرة في السماء، ينزلها الله على كل مستبد، فاجر، ولو كانت جيوشه ملء الأرض، ولو كان عتاده من أقوى الترسانات؛ لأن إذن الله بهزيمة أي مستبد لا يمنع منه شيء.
(57)
يقول تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ هذه آية جليلة، وهي من مفاتيح إعادة النظر إلى الكتاب العزيز من زاوية استراتيجية، وتفتح الباب أمام ضرورة قراءة الذكر الحكيم، ونحن ندرس شخصيتنا القومية؛ لتكون عونًا على تقدير العدو من الصديق، الآية تؤكد الفعل لترقى به إلى مرتبة حقائق التاريخ اليقينية، ثم هي تستعمل في الإخبار عن عداوة اليهود صيغة صرفية للتفضيل والزيادة المطلقة، متبوعة بتمييز يعين مجال الشدة المتعالية المعلنة، والآية توضح وجهة عداوة اليهود الشديدة بعبارة حاسمة دالة على غاية هذه العداوة بقرينة اللام، ووجهة العداوة هم المؤمنون، والآية عبّرت عنهم بالاسم الموصول المتبوع بجملة الصلة، وهو ما يعني استمرار العداوة لجنس المؤمنين على الدوام، ولو أن القرآن أراد الدلالة على أن الحكم مؤقت لعبَّر باسم الفاعل الدال على الانتقال والتوقيت، ثم إن الآية قدَّمت اليهود على الذين أشركوا، لإفادة ارتفاع رتبتهم في العداوة، صحيح أن الواو العاطفة لا تفيد ترتيبًا في منطق اللسان، ولكنها في منطق القرآن تفيد الترتيب، وقد صحَّ عن النبي ﷺ، أنها تفيد ذلك، الكتاب العزيز يعلن شراسة عداوة اليهود، وعنادهم، وحسدهم، وجحودهم، ومكرهم، وتخطيطهم لمحو المؤمنين، والكتاب

العزيز صريح في بيان موقفهم، ولقد استمرت الأمة على هذا المنهج، تحفظ عن ربها، وتربي أجيالها على هذه الحقيقة الواضحة.

(58)

يقول تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ، أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ،لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هذه آية عظيمة معجزة، تبالغ في الحط من منازل أولئك الذين تشوهت نفوسهم فسعوا في إسكات صوت الله تعالى عن بيوته ومساجده، الآية تقول إنه لا أحد أظلم من هؤلاء الذين يضيقون بمصانع التزكية، وبناء الضمائر الحية ممّن يضيّقون على العباد، ويسعون إلى إغلاق منافذ الهداية، الآية تقرر أن التضييق على المساجد، وإحراج روادها سعي في سبيل خرابها؛ لأن الله سبق منه أن جعل أفضل عمارة لها هو ارتياد العباد لأفنيتها، واصطفافهم في صفوفها، وارتفاع الأصوات بالقراءة والتكبير في أروقتها، الآية صادمة جدًا في الحكم المزلزل الذي تعلنه، وفي درجة الظلم المتعالية التي تقررها في حق المخربين والمضيقين على بيوت الله تعالى الذين يستفزهم صوت الإيمان، إن التاريخ يقول إن كفار قريش هم أول من ابتكر الصد عن المسجد، واتخذوا القرارات الحكومية من أجل أن يُسكتوا صوت القرآن فيه، وشغبوا على القراء وآذوهم، وأحرجوهم، ومنعوهم، وألزموهم الصلاة في البيوت بحجة أن نفرًا من قريش يتأذون من رفع الصوت بالتلاوة، ثم إن الآية تقول إن أولئك الذين يسعون في إسكات صوت المسجد لهم الخزي والهوان والمذلة والانكسار في الدنيا، ثم هم في الآخرة من أهل العذاب، والنار.

المسجد بيت الله تعالى، وهو مانعه، وحاميه، ولن يكون من أحد إلا ما يشاء الله في كونه، فيا أهل الأرض لا تمنعوا صوت السماء، ولا تصدّوا عن سبيل الله، ولا تسعَوا في خراب بيوت الله.

(59)

يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ،وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه آية جامعة هادية، الآية تستبقي الإيمان تشجيعًا، وحفزًا للهمم على تجنب الموبقات الأخلاقية التي تنهى عنها، الآية تأمر باجتناب الظن، وترتب عليه حصد الإثم، وتسعى إلى الضمير الحي، والمصداقية المنجية، وشفافية الصدور، والآية تنهى عن التجسس، وتتبع الناس، وحفظ حرمات البيوت، وخصوصيات الخلق، وتمهد الطريق لاستقامة المجتمع، وسد المنافذ على المتلصصين، والعيون، ومشوهي الضمير، وبائعي آذانهم للشياطين من أنظمة الاستبداد والفساد، والآية تحرم الغيبة، وتديم تحريمها، بقرينة الفعل المضارع المنهي عنه (لا يغتب) كما تقرر برامج البلاغة القرآنية، تصريحًا، ظاهرًا، غير مُحْوِج لاستصحاب السياقات، والاغتياب ذكر الرجلِ الرجلَ بما يكرهه وإن كان فيه، وهي أقل صورة ممكنة من الأذى، وهو نهي عن الأدنى استصحابًا لما فوقه من صور الأذى كالبهتان، وهو ذكر الرجلِ الرجلَ بما ليس فيه، لقد شاع في هذا الزمان نوع جديد من الغيبة استطال فيه نفر بسلطة مكانهم، فأسقطوا مكاناتهم، وأزروا بأنفسهم، ولقد شاع في هذا الزمان نوع افتراء، وبهتان تجاوز أذى اللسان إلى ما هو فوقه وزيادة، والآية تقرر أن المتورطين في ذلك والِغون في اللحوم الجيف، واللحوم الميتة، في صورة بشعة منفرة، تسقط بفاعليها، وتحشرهم في سلك الحيوانات المفترسة التي تتغذى على الجيف المنتنة، ومع كل الذي مرّ في الآية

الجليلة فإن الله تعالى يفتح بابًا للعودة والأوبة والتوبة من هذه الجرائم الأخلاقية ساعة يأمر بتقواه، ويذكّر بأنه هو التواب الرحيم لمن أطاعه، وكف عن الخلق أذاه.

(60)

يقول تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ هذه آية جليلة جدًا، ولعل بعض جلالها أنها تعيد الاعتبار للدرس التاريخي في الثقافة العربية المعاصرة، الآية تقر قانونًا جديدًا يجب على الباحثين في علم التاريخ اعتباره، وتقديره، والالتفاف حوله، وهو الانطلاق من محورية القيم الأخلاقية، ومحورية البعد الإيماني، ومحورية إعادة الاعتبار للإنسان في تقييم الأحداث التاريخية، كان فرعون حاكمًا قويًا بسط نفوذه المادي عسكريًا واقتصاديًا وحضاريًا، بمشاركة فاعلة وقوية من وزير التشييد والبناء في نظامه، وبمجهود متميز من جيشه وجنوده، وحقق هذا النظام بأذرعه الثلاثة على مستوى السياسة والحكم، ثم على مستوى التمدد العسكري، ثم على مستوى الاقتصاد، والازدهار العمراني في بناء المدن، وتنظيم الطرق، وتوسيعها، وبناء الجسور، وتنظيم الزراعة، والري، وإدارة الشونة على ما يقرره علماء المصريات - تقدمًا ملموسًا، ولكن القرآن فاجأ الجميع ووصف منجزه بقوله (كَانُوا خَاطِئِينَ) وهو ما يفتح الباب وسيعًا جدّا أمام ضرورة إعادة تقييم الأنظمة الحاكمة وفق معايير جديدة تقدم مباديء الإيمان والعدل والحرية والانسجام الإنساني، وتقدِّر قيم الإيمان الحقيقية على اعتبارات إقامة المدن، أو بناء عاصمة جديدة للدولة، وتشييد المساكن، وشق الطرق، وتوسيعها، وإعادة تنظيم المرور مع أهمية كل ذلك من المنظور الحضاري بطبيعة الحال، كان فرعون وهامان وجنودهما خاطئين لأنهم خنقوا الحريات، واستهانوا بكرامة الإنسان، وأذلوا السكان، كان فرعون وهامان وجنودهما خاطئين لأنهم اغتالوا العمل الأهلي، وأخَّروا رتبة المجتمع المدني، وعسكروا البلاد، وهيمنوا على مشاريع البناء والتشييد في ما يبدو، كان فرعون وهامان وجنودهما خاطئين لأنهم خانوا مواريث السماء، واستهانوا بقيم الإيمان، وتورَّطوا في الآثام، واستذلوا المواطنين، كانوا خاطئين مع علوهم المادي، الآية مرعبة جدًا.

(61)

يقول تعالى ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

هذا موضع عزيز من الكتاب العزيز، محوِج إلى فضل تأمل، ومراجعة فاحصة في زمان صعب، يلوك في الإخوة من المؤمنين لحوم بعض، ويستأسدون على بعض.

سافر موسى لبعض شأن دعوته، فكان في الخارج، واستوزر أخاه، النبي مكانه، ووصاه، وحمّله أمانة الفئة المؤمنة، وأمره بحفظ جماعة المؤمنين، ووحدتهم، وفهم الوصي الوصاة، وضل فريق من الجمع، واحتجوا بإمامة موسى، وهو يومئذ في الخارج، وهضم هارون النبي حق نفسه، والتزم وصاة أخيه عالي القدر والمنزلة، والمقدّم في الإمامة والنبوة، والعلم، وارتقى إلى الأولويات، وقدر، ونعم ما قدر، أن الوحدة، والتئام الصف، وتماسك الأمة، أمور مقدمة، مقدرة، معتبرة، يهون في سبيلها أشياءُ كثيرة، من مزاعم القيادة، كان هارون رجلًا نبيلًا، حفظ العهد، ورعى حقوق الأخوة، ولم يقل إنني قائد المرحلة، أو الوصع، مع صعوبة التواصل مع القيادة الأصلية، لقد سكت هارون على شيء من الانحراف العقدي، ولملم شمل الأمة، ولمّا شرح حجته لأخيه بَدا من موسى

عليه السلام ما يشبه الاقتناع والرضى بصنيع أخيه، وتوجها معًا لمجاهدة الضلال والثورة عليه، وواجها السامري، فيا أيها القوم تعلموا من هارون، ويا أيها القوم اتحدوا في مواجهة السامري!
(62)
يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.
هذه الآية رهيبة جدًا، تثير الرعب في نفوس الذين يحسنون استقبال التاريخ.
الآية تقرر وتؤكد أن الله تعالى سبق منه الانتقام من أئمة الاستعلاء والاستكبار والإجرام في الأرض، كان فرعون وحكومته يتيهون باقتصادهم، وعلوهم في مشروعات البناء والتشييد، وكان فرعون وحكومته يترصدون المخالفين فيقتلونهم، ويستأصلونهم، ويترصدون النبتة الصغيرة في ملاحقة أجيال الأطفال، لكن الله تعالى هزمهم، وأسقطهم بما ظنوا أنهم لن يهزموا من قبله، هزمتهم الشدة، والضوائق الاقتصادية، وغلاء الأسعار، وانعدام الأمطار، وتراجع الميزانيات، هزمهم بتراجع القوة، وبنقص الأموال، وهزمهم بنقص الأنفس بموت الذين اصطفوا معه، وساندوه، وأيدوه، وحرّضوا على المؤمنين من بني إسرائيل، وأبلغوا عن الأطفال الصغار، ودلّوا عليهم أجهزة السلطان، الله يؤكد قدرته بقرينة الفعل الماضي (أَخَذْنَا)، ويؤكد عظمة انتقامه، والاجتماع له، بقرينك الضمير العظيم (نا)، إن الله الذي انتقم من فرعون وحكومته ومن شايعه، واصطف إلى جانبه هو الله الذي يرى مظالم هذا العالم، والاستعلاء البغيض من الظالمين، والاستكبار. المريض من المجرمين، الله هناك هو الله هنا!
(63)
يقول تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، هذه آية عجيبة جدًا، ولكن الناس يعزلونها، إذ يحصرونها في نطاق الأخلاق الشخصية، الآية قاعدة حكيمة ضابطة للشأن الاجتماعي كله، والشأن السياسي كله، والشأن العام جميعًا.
لقد تطورت برامج الخديعة، والتزييف، والتزوير، وتغلغلت في مسارب الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية جميعًا، ولكن الآية وهي توجه الأخلاق الخاصة طلبًا لتزكية النفس لا تعزل الأمر عن الشأن الاجتماعي، إذ الحادثة وقعت في محيط العلاقات الاجتماعية، ولا عن الشأن السياسي؛ لأن المتهمة الرئيسية زوج زعيم سياسي مرموق جدًا، يعتلي سدة الحكم في زمانه، ولا عن الشأن العام؛ لأن المتهمة من رموز الحياة العامة في الزمان الذي تحكي عنه الآية؛ ولذلك صح من جانبنا أن نقرر أن الآية قاعدة جليلة جدًا في بعث الأمان القلبي والعقلي في النفوس المؤمنة بأن الله تعالى مبطل تآمر الخائنين، والغادرين، في الاجتماع والسياسة والتربية جميعًا، الله يعد بهزيمة الغدر، وبهزيمة الخيانة، والوعد منه قائم، متجدد، واسألوا الفعل المضارع ناطق بدلالة زمان الاستمرار.
الخيانة هزيمة كلها،
الخيانة عار كلها،
الخيانة خراب كلها،
والله لا يعجز عن تنفيذ وعوده!
(64)
يقول تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، هذه آية عجيبة جدًا، ولا أدري كيف يذهل عن مضمونها الحضاري كثير من الخلق.

الآية تباهي بنبيّين كريمين، أحدهما من أولي العزم من الرسل، وآخرهما جد نبيِّنا ﷺ، ومادة المباهاة هي أنهما كانا يعملان في البناء والتشييد، الآية تعلن أن إبراهيم كان بنّاءً، وأن ابنه الذبيح كان مساعد بناء، أو مناوِلًا بلغة الصناع المصريين، الآية أعلت من مهنة البناء، وأعلت من مهنة مساعد البناء، وأسندت الفعل الجليل إلى إبراهيم وإسماعيل، وجعلت البناء طريقًا للرفعة، رفعة الحضارة من طريق التشييد، والعمارة، ورفعة المقام من طريق أن يكون الإنسان نافعًا في الحياة، يبني ما يأوي الإنسان ويحميه، وينظف الطرقات، ويرقى بالإيمان والسلوك والحياة، والعجيب أن النبيين الكريمين ابتهلا إلى الله تعالى أن يتقبل منهما العمل، وأن يكافئهما عليه، وهو بناء، ومناولة أحجار، وملاط، وتعب بدني، نزلت الآية وأخواتها في الكتاب العزيز فاعتبرت كل عمل بمقاصده، فالبناء والتشييد من عمل الأنبياء كان طريقًا لعمارة الكون، وعبادة الرب، وتنزيهه في الأرض، وارتقاءً للروح، وتجميلًا للحياة، ومَجْلًى للاختراع، وتذليلًا للموارد، وحاميًا للبدن الإنساني، وأمرًا بالنظافة الخاصة والعامة، وجعلهما طريقًا لتحصيل الإيمان، وترقية الوجود الحي، وحماية الحضارة، ومحاربة الأوبئة، وصناعة جودة الحياة، ووعد الرب على من يمارسها ويعمل في مجالاتها بالأجر الجزيل.

إن الآية كاشفة عن انحراف مروّع عن عطاءات النطاق المركزي لحضارة القرآن، يا أهل التربية، يا سدنة المقررات التعليمية، يا صناع الإعلام إن ما كان مما كان مما نجد من الانحراف مرجعُه إلى تغييب حقائق القرآن، احتفلوا بإبراهيم بنّاءً عابدًا، وبإسماعيل مناولًا عابدًا، وبكل الكرام الذين عملوا من أجل حضارة الإنسان!

(65)

يقول تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

هذه آيات جليلة جدًا، تفتح الباب واسعًا أمام فحص هذا العضو العجيب الذي به تكون الإنسانية ظاهرة راقية متعالية، ألا وهو القلب، الآية تتكلم عن طاقة تغييرية عجيبة يمكن للقلب أن يحصّلها، ويحدث له اللين، والرقة، والامتلاء بالعطف والشفقة، الآيات تتكلم عن نوع من النصوص التي تملك صنع اللين في القلوب، وهو مدخل رائع لفحص الأثر النفسي للكتاب العزيز، الذي وصف نفسه بأحسن الحديث.

الكتاب العزيز يفتح الباب للعلاج بالأدب الراقي، ويفتح الأفق على تحقيق الترقي الإنساني من بوابة ترقي القلوب، الآيات تتكلم عن تأثير مادي وكيميائي للكلام الحسن، وهو الأمر الظاهر في تليين الجلود، وتليين القلوب.

الكتاب العزيز نموذج فريد نحو لين القلوب، وامتلائها بالعفو، والمحبة، والآداب المتأثرة بمقاصد الكتاب العزيز الجمالية والمضمونية طريق للقلوب الطاهر، وطريق للقلوب المتآلفة، وطريق لاحتفاف القلوب بالنور، والضياء.

افتحوا قلوبكم للنور، واعمروها بالرقة.

يا كل المكلومين،

ويا كل المحرومين،

ويا كل المظلومين،

ويا كل الملتاعين، املأوا قلوبكم بالحب،
ولينوا لكل الذين يمدونكم بالسعادة،
لينوا لكل الذين طالما أمتعوكم ولو للحظة واحدة،
قدّروا من يمنحونكم إنسانيتكم،
يا كل أهل الفضل علي، ويا كل من ملأتم قلبي باللين.. شكرا لك.

(66)

يقول تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

إن الآية الجليلة تفتح آفاقًا جديدة للانتصار للتصور الذي تنزّل به الكتاب العزيز، الآية تقدر المرأة، وتقدر الطفل وتحتفي بهما، وتدعو إلى حمايتهما، ربما لأنهما رمزان على الضعف الإنساني، وربما لأنهما أعلى مصدرين للبهجة الإنسانية، وربما لأنهما مصدران للبقاء، بسبب من خصوبة المرأة، وهي الضامن لبقاء الإنسانية واستمرارها، وللبراءة والأمل في المستقبل، إذ الطفولة أعلى مخازن البراءة الممكنة، والفرحة الممكنة.

الآية تدعو إلى العناية بتثقيف المرأة وتثقيف الطفولة، الآية تقرر حمايتهما من مناطق الخطر والصراعات، والنار، (امكثوا)

الآية تضمن السعي لضمان المعرفة لهما (لعلي آتيكم بخبر)

الآية تقرر أن السعي على رفاهة هاتين المنطقتين مروءة وتمام رجولة (أو جذوة من النار لعلكم تصطلون)

القرآن قادر على أن يتقدم ليملأ فراغات العالم،
وقادر على أن يحارب التوحش!

(67)

يقول تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾.

هذه آية عجيبة جدًّا، ومطمئنة للمؤمنين جدًا، ومزلزلة للظالمين جدًا،

الآية نهي ظاهر من (لا الناهية) وهذا موضع عجيب في النهي عن الإدراكات المريضة، ونهي عن المعرفة المريضة، ونهي عن بناء المفاهيم المريضة، ونهي عن التصورات المريضة، ونهي عن الإجراءات البحثية المخادعة، ونهي عن الاستجابة لغواية الإحصاءات الموجهة، ونهي عن اتباع المظاهر الخادعة وتحكيمها في الاستنتاج، واستخراج الأحكام.

ثم إن الآية الجليلة نص في بعث الأمل في النفوس، وفي تخليق الاطمئنان في الأفئدة، وفي زرع البهجة الساكنة الآمنة، الآية تعالن أن الله لا يغفل اليوم، ولا يغفل غدًا، ولا يغفل على امتداد الزمان، الآية تقرر مراقبة الجبار للظالمين، ورصده للظالمين، وعدّ أنفاس الظالمين، وتسجيل أصوات الظالمين، وإحصاء خطرات الظالمين، الآية الجليلة لا تنفي الانتقام الدنيوي من الظالمين، ولكنها تقرر منهجًا بديعًا في الأمان المريح عندما ترد المؤمنين إلى نهاية المطاف في الآخرة، وتردهم إلى نوع مقارنة لا تصمد فيه الدنيا، ولا يصمد فيه تسلط الظالمين، ولا يصمد فيه غرور الظالمين، ولا بطشهم أمام قهر الله وجبروت الله وبطش الله، في الآخرة.

لقد كان العماد الأصفاني كاتب صلاح الدين الأيوبي عبقريًا عندما اقتبس قطعة من الآية الجليلة في سياق التهوين من غرور الظالمين الصليبيين وأنصارهم،
الله يقول،
الله يفتح آفاق الأمل.
(68)
يقول تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ هذه آية كأنما تتنزل اليوم، وهذا حكم يدعمه التنادي إلى نوع معلن من الجاهلية، يتزعمه نفر من الناس غفلوا عن فارق ما بين الجاهلية التي يدعون الناس إلَيها، والإسلام الذي جاء فحرر الخلق من الجاهليات، أو أراد، الآية نهي ظاهر للنساء المؤمنات بدليل قرينة السابق على ما يقرره أهل النظر في السياق، إذ ماقبلها خطاب لأجلّ النساء، وهن نساء النبي ﷺ، أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، ومن معهن من أطهر الأجيال، الصحابيات، والآية نص في ضرورة العناية بثقافة القوم الجاهليين، حتى يمكننا فهم الآية الجليلة، ولأجل ذلك حفظ علماء الإسلام الأوائل هذا التراث على مافيه فقهًا، وفهمًا، وسبيلًا لفهم الكتاب العزيز، ولم يبلغنا عنهم أن حرقوا هذا التراث على وثنيته، أو مجونه، ولا بلغنا أنهم دعوا إلى حرقه، الجاهلية الأولى نوع ثقافة نالت منها الآية الكريمة، والله تعالى يدعونا ألا نتورط في ممارسات الجاهلية الأولى، والذين يراجعون أدبيات تاريخ العرب في الجاهلية يعرفون أن النساء كن يزاحمن الرجال مزاحمة بغيضة غير أخلاقية، وكن يطفن بالبيت الحرام عرايا إلا من بعض شيء تافهٍ لا يستر العورات، ويتباهين بذلك، ويتكسرن في كلامهن، ويتغنجن لمن لا يعرفن، ويشعن الفحشاء باسم الفن، والجمال، القرآن يمنع من استعادة الجاهلية الأولى، وهو بهذا يعلن أن الجاهلية نمط ثقافة لا حقبة زمان، الآية تدمغ الدعوات الراهنة التي تريد أن تردنا بعنف إلى ثقافة الجاهلية الأولى، وتستثمر المرأة سبيلًا إلى ذلك.
إن هذه الدعوات عنصرية ضد النساء، وتشييء لهن، وعرضهن سلعة، وتحويلهن لوقود معركة ضد الدين، الله يريد الطهر للمرأة، ويريد لها ألا تتحول إلى شيء، أو سلعة، يريدها إنسانًا موفور الكرامة، ثم هو يريد للعالم ألا يعاند حقائق الدين، وأن يسير في اتجاه الطهر، والتزكية، وانسجام النفوس، لاتبرجن: نهي إلهي والجاهلية الأولى ثقافة يراد لها أن تهيمن من جديد!
(69)
يقول تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾
هذه آية جليلة جدًا، وبعض جلالها نابع من جلال ما تحتويه من دلالة، الآية عنوان حضارة جديدة، أوجدت من عدم، وصح معها وصف الحضارة التي أسسها الكتاب العزيز بأنها حضارة الكتاب بامتياز، والآية منبع للتقدم، وطريق للتمدن.
لقد كان من تجليات الآية الكريمة في بعض التطبيقات النبوية أن سوّت بين الحياة والقراءة، لقد قرر النبي ﷺ افتداء المحاربين من المشركين المأسورين في بدر بطريق تمكين صبيان المسلمين من القراءة، فكان التجلي العظيم الذي سوّى بين نحاتهم وبين القراءة، وصار فعل القراءة رمزًا للنجاة، وصارت صناعة الكتاب في الحضارة التي أعلاها القرآن رمزًا للحياة.
إن الأمة التي تهين الكتاب وتزدريه أمة تهلك وجودها المادي المتعين، وهي أمة تهين الأمر الإلهي وتزدريه، إن الأمة التي تتجاوز في حق القراءة وفي حق الكتاب أمة تهين القرآن، وتدعو إلى الإزراء به، لأنه أعظم رمز على الرب الذي خلق!

الكتاب حياة
الكتاب نجاة
الكتاب إشارة إلى الله!
(70)
يقول تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾
هذه آية عجيبة حقًا، عجيبة في تركيبها، وعجيبة في الحقيقة التي تعلنها، وعجيبة في الروح التي تبثها في النفوس، وعجيبة في نهيها عن هذين الفعلين المحبِطَين: الهوان والأحزان!
لقد كنت أتسامع أن العجز خيانة، وأن الضعف محظور، وأن ترك الطريق لهزة عارضة غير إنساني فأعجب من فقه الذين يعلنون ذلك، وها هو ذا الكتاب العزيز يدعم ما قالوا، ويعلي مما قالوا.
الآية تمنع من الوهن، وتمنع من الضعف، وتنهى عن العجز، وتنهى عن تنكب الطريق المستقيم لشيء قاسٍ عارض، والآية تمنع من الأحزان، وتنهى عن الانكسار، وتمنع من الهزيمة النفسية، وتنهى عن البكاء الذي يسقط بالهمم، وينال من العزائم التي كانت صلبة، وتدعو النفوس إلى التماسك، والاستعلاء على الآلام، مهما كانت، لقد مرّ بي في حياتي لحظات أشرفت فيها على فقد أحب الخلق، وتملكني شعور جارف بالهزيمة، وغمرني بكاء الانكسار، ثم كان الصوت القوي العجيب الذي يدفعني نحو القوة، ويعيد تذكيري بأن النفوس الكبار لا تقبل بالهزيمة النفسية، ولا تستجيب لدواعي الإحباط، والضعف، والعجز، والحزن، والتراجع، كان صوت نفسي يقول عند الشعور بالخطر: لا تبكِ، فكل أحد صغير بجوارك، كان الصوت حاسمًا، ومنيرًا، وحنونًا، وموصولًا بالآية الجليلة من حيث أدرك أبعادها بفطرة عجيبة، إن الأمة التي تحسن تدرك نفسها، وتدرك رسالتها لا تنكسر، وإن أفراد الأمة الذين يحسنون يحبون، ويحسنون يتمسكون بشخصيتهم، ويحسنون يكتشفون ملامحهم الذاتية الحقيقية لا يهنون أبدًا، وها أنا أعالن بأنني أدرك سر نفسي، وسر هويتي، وسر هذه الحضارة العجيبة، وسر الإنسانية المتدفقة في نفوس الذين منحونا معنى الحياة من جديد، ولذا فإنني سأطارد في روحي وعقلي أي بقية لهزيمة نفسية، وأية بقية لمعنى الوهن، أو الحزن، أو فقدان الثقة،
لقد أضاءت الطريق، وسيظل الطريق مضيئًا مادامت باقية!
(71)
يقول تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.
هذه آية جليلة مزلزلة، أما جلالها فمن كونها باقية على الزمان، مستمرة مع تكرر الشأن، وأما زلزالها فلأنها في أهل مصر في زمان يشبه الزمان، استكبارًا في الأرض، وانتشارًا للإجرام، وشيوعًا للفساد والهوان، الآية تقرر أن الله تعالى يعاقب بالماء، فيكون موتًا ذريعًا، وتدميرًا مريعًا، وتقرر مرة أخرى عندما تلوث الماء وصار دمًا، وملأته الجراثيم، وسكنته الأوبئة، الآية تقرر أن الله تعالى يسلط الجراد والقمل والضفادع، وهي أمثلة غير حصرية لما يطيع الله تعالى من خلقه يوم يشاء تسليطها على من يعصاه من خلقه.
هل يشعر العقلاء اليوم أن أجيال المصريين في كثير من شرائحها وفئاتها وطبقاتها تقترب من هذا المصير المؤلم؟!

وهل يشعر العقلاء اليوم أن كثيرًا من الأوضاع تدفعنا إلى هذا المصير المشئوم؟!
وهل يشعر العقلاء اليوم أن كثيرًا من صور معاندة الله تعالى، والجرأة عليه فاشية في الناس توشك أن تعمهم بالعذاب الرهيب؟!
إنني أستشعر هجومًا خسيسًا على الله تعالى في كثير من المناطق المصرية، واستشعر أن الله تعالى ينذرنا بهذه الآية التي نزلت في أجيال مرت على هذه الأرض، واستعملت النيل في حربه سبحانه، فعوقبوا به، وتاهوا على الرب بالنعم التي أخرجها لهم فدمرهم بها، النيل يحمل الموت الذريع للعصاة، والأرزاق من المطعومات تحمل الموت الذريع للمعاندين المارقين، والبيوت والمساكن تستحيل مواد عذاب لا تطاق للمجرمين، الذين يستكبرون، ويبطشون، ويتشوهون.
اللهم إنني أبرأ إليك من فساد الفاسدين، وإجرام المجرمين، واستكبار المستكبرين!
(72)
يقول تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ،حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾
هذه آية جليلة جدًا، وجلالها ظاهر جدًا، الآية من آيات الأحكام التي تفرض على الإنسان، جنس الإنسان أن يستفرغ الوسع في إكرام الأم، والمبالغة في الإكرام، وهذه المبالغة ظاهرة من عدة أمور، هي:
- استعمال (إحسانًا) في هذا الموقع النحوي العجيب، حيث وقعت مفعولًا مطلقًا لفعل محذوف، وهو ما جعل الأمر في «وصينا» للتوكيد، من جانب، وأسكنه بدلالة الأمر مرة أخرى؛ لأن المفعول المطلق محذوف العامل يدل على الأمر.
- استعمال الإحسان، وهو مصدر، والمصدر هو المادة الخام من المعنى، إذ هو الحدث المجرد من أية علائق زمانية
- وهو نكرة؛ لاستغراق الأنواع جميعًا
- وهو الإتقان البالغ من الوجهة المعجمية.
ومن عجيب تركيب الآية استعمال الإخبار لوظيفة التعليل للأمر بالإحسان إليها، وهو ماظهر من الإخبار عما تحملته من عذابات الحمل، والكره الذي رأته، والكره: وهن شديد، وكلفة ومشقة مريرة، وهو الكره الذي يستمر في الحمل ويستمر في الرضاعة.
إن الآية أشارت إلى صنوف من الكره، وسكتت عن صنوف من المتاعب، والمكاره التي تتحملها في سبيل حياة ولدها، سعيدة، وإن كانت واهنة، محبة، وإن كانت متألمة، ومن أجل ذلك قرر القرآن وجوب برها، والإحسان إليها، والارتماء تحت قدميها، والتماس الجنة هناك عندها.
اللهم أكرم أمهاتنا، وارض عنهن.
(73)
يقول تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾
هذه آية جليلة جدًا، في زمان عجيب يغفل الناس فيه عن معنى الحب النبيل، وفي زمان تشوهت فيه الإنسانية وسعت للتجويع والتعذيب، والإفقار!
الآية تمتدح فريقًا نبيلًا مؤمنًا من الخلق برصد حرصهم على حياة الخلق، بما يبذلونه من إطعام الطعام لكل مناطق الضعف الإنساني مشمولًا هذا البذل باستصحاب محبة الله تعالى، الآية تحمل

أمرًا للذين يتوقون أن يكونوا من جملة المؤمنين الأتقياء أن يطعموا الطعام لكل المحتاجين، المنكسرين، المأسورين، المسجونين، ولو كان أسرهم وسجنهم لسابق عداوة، أو محاربة.
إن الله تعالى يربط كما يلوح في هذه الآية الجليلة بين الإيمان والعطاء المحيي للبشر، ويجعل مقياس حفظ البشرية من طريق الإطعام بابًا للخيرية، والإيمان، الآية تنعي بشرًا فقدوا إنسانيتهم، وجوّعوا الخلق، وتنعي أنظمة لم تراقب الأسواق فصَعُب الطعام على الناس، الآية تَصِمُ أممًا أزهقت نفوسًا من بني آدم فيها جوعًا، والآية تدمغ دولًا قطعت أرزاقًا، وشردت نفوسًا، الآية تعلمنا أن الذين يحتكرون السلع من أجل الثراء قوم يكرهون الله تعالى!
وتقول إن الذين يضيقون على الخلق في الأرزاق قوم لا يعرفون محبة الله تعالى، وتقرر أن الذين يبخلون بالطعام، ويمنعونه، قوم ما ذاقوا إيمانًا، وتقول إن الذين يغشون، ويستهينون بصلاحية الطعام قوم يصدون عن الله تعالى.
إن الحب مدخل عبقري للإيمان، والإحسان، واستفاضة الخير.
(74)
يقول تعالى ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
هاتان آيتان جليلتان جدّا، تقران سنة في الكون، والوجود الحي، وتكشفان عن سمت إنساني ثابت، مركوز في الخلق.
القرآن يقول إن مواجهة الشرك، والباطل، والفساد، والغرور، والانتفاخ المريض، أمر لازم، وهو يدعو إلى ذلك بأغلظ الأفعال الدالة على المواجهة في حق المشركين والمجرمين وقطاع الطريق بالفعل الأمر الصريح (قاتلوهم)، استصحابًا لما دوّنه في المنزلة من أوامر الفضح، والنقد، والإزراء، والجهاد بالكلمة الشريفة المبينة، والدليل الكاشف الدامغ.
إن مواجهة الشرك والظلم والفساد والباطل والغرور المريض، والبطش الأعمى، والاستبداد المبيرُ طريق تعذيب من يتورطون في هذه الموبقات.
إن المواجهة، والجهاد، والمقاومة، والممانعة، والتمسك بالحق، وكشف الزيف، طريق ظاهرة عبقرية مع بساطتها للنيل من أهل الظلم والفساد والبطلان، وطريق عبقرية مع بساطتها لخزيهم، وسود وجوههم، وتواريهم من الدنيا ومن الناس خوفًا وفزعًا من آثار مظالمهم، لا تلوموا الذين يظهرون الفرح لإزاحة الظالمين من مواقعهم، ولا الذين أصابتهم الجوائح من الظالمين المبطلين للنيل منهم وتأخير رتبتهم في الحياة، لا تلوموا المؤمنين لأنهم يجمعون الأفراح من الأسواق بسبب السقوط والخزي الذي يلحق بنواصي الفجار!
الله جعل شفاء صدور المؤمنين ترياقًا يحمي المؤمنين من اهتزاز الإيمان في قلوبهم، ووعيهم.
الله جعل النصر شجرة تسقيها هزائم الفاسدين، وخزي الظالمين، وإزاحة الفاجرين من فوق أسرّة سلطتهم، الله يبشر بذهاب الغيظ من القلوب المؤمنة المكلومة، ويفتح الباب - للتوبة والعودة إلى الحق، والإيمان به، والتكفير عما فرط منهم في مؤازرة الباطل، ودعمه والسير في ركابه، والركون إليه، والتهليل لأوهامه، والحلم بقادته في المنامات - بهذا النصر، وهذا الشفاء أمام الذين خدعهم البطش الغاشم، والذين غرتهم السلطة المجرمة، وكسرت نفوسهم أمام أنفسهم الفتنة القائمة، وأعمت عيونهم، وزكمت أنوفهم تيارات الخوف الجارف والرهبة المحرمة.
يا أيتها القلوب المؤمنة المكلومة، أبشري، وانهضي، واستمسكي، وتعلقي بالآمال العِذاب!

(75)
يقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) ﴾
هذه آيات جليلة جدًا، تفتح بابًا للاطمئنان، والسكينة البالغة، الله يسمي الذين يخالفون عن أمره بالمجرمين، ويعين صفاتهم التي تصمهم بين الخلائق، وهم أصناف باتت معلومة بالإمكان رؤيتها.
إن المجرمين هم الذين يسخرون من الذين آمنوا بالله تعالى، والتزموا طريقه، تمسكوا بالحق الساطع، والمجرمون هم الذين يتغامزون، أو يرسمون ساخرين، ويكتبون مهينين الشريعة، وأفكارها، ويشغبون على الأعلام، ويصدون عن سبيل الله، والمجرمون هم الذين يسيئون إلى الله باسم الشعرية، وحرية التعبير، والآداب، والفنون، والمجرمون الذين يشوهون الذين آمنوا، ويضيقون عليهم، ويحاربونهم، ويتهمونهم، والمجرمون أصناف متكاثرة، متنوعة الله يتوعدهم، ويفضحهم، ويهددهم.
إن الآيات الجليلة وهي تعين الآخرة موعدًا لفضيحة المجرمين والانتقام منهم، والزراية بتاريخهم، لا تصادر على فضيحتهم في الدنيا قبل الآخرة، ولا تمنع الزراية بهم هنا قبل الإهانة الأبدية هناك، إنما تربط على قلوب المؤمنين لكي لا يقنطوا، ولكي يستهينوا بهذا الفراغ الزمني، الذي يوشك أن يكون لا شيء في مقابل الزمن الأخير السرمدي.
إن مآل المؤمنين راحة بريئة، وبهجة خاشعة، وضحك مستغرق، ومتعة دائمة مقدسة.
إن الآيات تتجاوز صنع التعادل إلى شيء عجيب تربط به على القلوب المؤمنة الموجوعة في هذا الزمان الذي سينتهي، إلى البهجة التي لن تنقطع، وهي بهجة للأبدان بموجب توافر الأرائك في الجنان، وراحة الروح بموجب الضحك الذي يعمر الوجدان والقلوب.
إن أسلوبية السؤال الذي اختتمت به الآيات يتجاوز حدود الاستفهام إلى صنع حجاج عجيب يثبت البهجة والارتياح بدرجة مذهلة، ويصنع طاقة حجاجية مذهلة في إثبات المهانة المتعاظمة للكافرين والمجرمين، وكُتاب الشر، وفناني الفتنة المريضة، ورسامي الألوان الماجنة والعابثة.
الله يربط على القلوب، ويعد بالفرحة الساكنة، والبهجة الهادئة، والضحك الجليل، والسعادة الأبدية، الله يرسم السرور، فابتهجوا!
(76)
يقول تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.
هذه آيات جليلة جدًّا، ورهيبة جدًّا، الآيات تتعرض لنموذج من الخلق مغترٍّ بقوته، وبطشه، وبما كنزه من ثروة، وبما تبعه من عائلة، وأبناء، وسلطة في قومه، ومنصب في بلدته، ثم هي تهينه، وتتعرض لنسبه الذي يسكنه العار، وتتبع عورته، وتكشف سقوط نسبه، وتعري نمطًا من صفات نفسه الدنيئة، وتفضح استهانته بالله تعالى، وجفاءه وغلظته، وسقوط إنسانيته، وتورطه في الحيوانية.
الآيات الجليلة تسعى إلى هدم هذه الأصنام معنويًا، بإذاعة ما كان يُظَنُّ أنه من الأسرار التي حاطها، وأمِنها، وكتمها عن العالمين، فلم تمنعه سلطته، ولم تمنعه عزته الكذوب من أن تُعرف،

وتذاع، وتنتشر.
الله تعالى يمنحنا الدرس البليغ، ويعلمنا أن النصر متعدد السبل، وأن الهزيمة المعنوية لرموز العدو من أعلى سبل الانتصار للحق، لا تصدقوا الذين يقولون إن ذلك ليس عملًا أخلاقيًا، إنهم يكذبون على الله تعالى.
المهم ألا نفتري على أحد، أما أن ننتصر للحق بهزيمة الظالمين، وبيان انحطاطهم فطريق مأنوسة، وسبيل قرآنية، يدعمها فهم نبوي رشيد.
الآيات تفتح الباب أمام استثمار القوة المعنوية المتمثلة في فضح الأعداء، وكسر إرادتهم، وتعرية مقابحهم، هذا بعض الطريق التي غفل عنها أهل الحق زمانًا طويلًا!
(77)
يقول تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.
هذه آية جليلة جدًّا، تقرر قانونًا كاملًا، مستجمِعًا شرائط الكمال، الله يقول الحق، في ما يصحح النظر إليه إلهًا مستحقًا، معبودًا، والله يقول الحق، ربًّا، يرعى، ويتفضل، ويمنح، ويرحم، ويحلم.
والله يقول الحق في ما أمر به، وهيأ الأسباب للإقبال عليه، والله يقول الحق في ما نهى عنه، ورتب عليه من العقاب، والعذاب، والضيق، والتيه، والضلال، ونكبات الزمان، والله يقول الحق ساعة انتدبنا إلى الخلق القويم، والرحمة بالخلق، والرأفة بالمساكين، والعطف على المتعلمين، واللين للإخوان، والإكرام للأصدقاء، والبر بالأحبة، والوفاء للأشياخ، وأولي المكارم من أصحاب الفضل، والله يقول الحق يحب لنا حبه، وحب تفاصيل شريعته، ودقائق ما نزّله، ويحب لنا أن نحب ما كان من أهل الإقبال عليه، وخدّام دينه، وحفظة وحيه، والله يقول الحق، والحق يفرض أن نحب أهل الحق الذين وفقهم لمتابعة الحق، وأن نبرأ من أهل الباطل، والمجرمين، والفسقة، والمستبدين، والطغاة، والذين يتهمون الوحي، ويُزرون بتراث الأمة، ويهيمون شوقًا بالغرب الذي يخاصم الله، الله يقول الحق، بكلامه، وبما هدى به إليه، وبالأعلام الذين نصبهم للدلالة عليه، وبجهاد المستمسكين بوحيه، ويقومون على شرحه، والاستنباط منه، وتيسيره للخلق، ويواجهون الذين يشغبون عليه، الله يقول الحق، فأعرضوا عن كل الأصوات التي تخالفه، وتتنكر له، الله يقول الحق، ومراده أن نهتدي إلى السبيل الحق، اسمعوا لصوت الحق، استجيبوا لله الحق، الذي يقول الحق!
(78)
يقول تعالى ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾
هذه آية جليلة تتكرر على الزمان، تقرر أن غرور المادة سبيل موطوءة للانحراف، وسبيل موطوءة للذهول عن الضعف الإنساني المستولي على الجميع، الآية تتجاوز حدود أحد الفراعين؛ لتكون دليلًا، ومنهجًا صادقًا على كل سفيه، ومستبد، وطاغية، في كل زمان، ومكان، يغتر ببعض عرض زائل، فيفتنه عن حقيقة ضعفه، وخوره.
إنَّ قصورًا من حجر وحديد، ونهر مهدد بالجفاف طبيعة، أو بتدخل بشري لم يكن ليطمس الحقيقة المعلنة عن العجز البشري!
كيف صح ما لا يتصور عاقل أن يصح؟!

العجيب أن هذا الافتتنان ببعض هذا العرض المتروك مرّ في التاريخ، وكان طريقًا لسخطة مروعة من الجليل الجبار سبحانه، ثم لم يتنبه الطغاة،
الله يقول: فلما آسفونا انتقمنا منهم، ومسوغات سخطه سبحانه كانت في الغرور المريض، وكانت في النهب المريض، وكانت في الابتزاز المريض، وكانت في اكتناز الثروات المريض، وكانت في التعالي المريض، وكانت في الفتنة ببعض العرض الزائل، الله سبحانه انتقم من فرعون؛ لأنه اغتر، ولأنه أغضبه، ولأنه ابتز رجال الأعمال في زمانه، ولأنه قربهم، ولأنه رضي بفسادهم، ولأنه كنز ما كان من حقوق شعبه، ولأنه سكن القصور الزائلة ففتنته، ولأنه استخف قومه، فخنعوا، وتورطوا في وثنية متابعته، ومغازلته، الله الذي انتقم من فرعون القديم ما زال حيًا قيومًا لا يعجزه أن ينتقم من كل فرعون في كل زمان!

(79)

يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾
هذه آية جليلة جدًّا،
وقدسية جدًّا،
الآية تقول إن قتل نفس بابٌ عريض لاستجلاب غضب الرب، الآية تعالن بحقيقة حرمة الدم، وتعالن بحقيقة قدسية الروح الإنسانية، الآية تفتح أمرها بنص صريح في التعليل، وهي تدعو إلى عمران الوجود، وتقرر أن العمران أساسه بقاء الإنسان، وأساسه حياة الإنسان، وتحسينها، وتجويدها، والارتقاء بها، كيف ذهل الإنسان المعاصر عن الإحياء؟
وكيف تورط في الدم، وانخرط في الهدم، وبالغ في القتل، نسف إنسانيته، وتنكّر لله تعالى؟
العقل المعاصر سقط في فخ التسطيح، وتغافل عن أن الإسراف متسع الدلالة، لا ينحصر في ما حصره فيه أصحاب القلوب التي تشوهت،
الآية تفتح الباب واسعًا لإعادة ترسيم حدود الإسراف، الإسراف في الآية يطال قلوبًا توجه أصحابها بها نحو التشوه، الإسراف في الآية نفوس انخرطت في القتل، وشجعت على القتل، ودافعت عن الذين قتلوا، وأشاروا على من قتل بما قتل بالكلمة الحرام، والإشارة الحرام، والحركة الحرام، والسعي الحرام، الإسراف لم يكن يومًا محصورًا في اللقمة الزائدة، ولا الشربة الزائدة، ولا في الدراهم الزائدة، الإسراف الذي تنكر له العقل المعاصر يتجاوز الحدود التي حصره فيها فقهاء السوء، الإسراف الحقيقي كما تشير الآية الجليلة هو الذي لا ينتصر للحياة، الإسراف الحقيقي كما في الآية القدسية هو الذي تورط في القتل، ودعا إليه، وفرح به، وسوغه، وأشار به، ونزل من أجل دعمه، القتل هدم للحياة، والله يغضب ممن يهدم الحياة، اتقوا غضب الرب!

(80)

يقول تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾
هذه آية جليلة، وبعض جلالها ظاهر في أنها تمثل قاعدة كلية للوجود،
الآية تعلن حكمها الواضح المبين في الذين يتعلقون بالدنيا تعلقًا مريضًا، وفي الذين يطلبون هذا التعلق المريض - وأنهم على ضلال، وخسران، وتحير، وضياع، وتيه!

الآية تقرر أن الركون إلى الدنيا، بما هي عليه من حقارة، وانقطاع، في مواجهة الآخرة الباقية هو الضياع الحقيقي، وهو الانكسار الحقيقي، وعلامات التعلق المريض بارزة في سبيلين:
الأول: هو الصد عن سبيل الله تعالى.
الثاني: إقامة مؤسسات الانحراف، والاعوجاج.
يجب أن يكون مفهومًا، أن الهداية المبينة طريقها عكس هذا الطريق، طريقها أن يستحب الناس طريق الآخرة، وأن يعينوا على السير في سبيل الله تعالى، وأن يتعلق الناس بالاستقامة، ومقاومة الفساد، والتمسك بأخلاق الرعاية، والتراحم!
الله تعالى يدعوكم أن تمتنعوا من استخباب الدنيا، ذلك الاستحباب المختلط برفض الآخرة، والتنكر لدلالات الديمومة له تعالى.
إن تغييب وجه الآخرة يُدخِل الناس في دائرة التوحش، وقد دخل فريق كبير من هؤلاء الذين ينضوون تحت لافتة البشرية بسومهم إلى بيت التوحش والهمجية، في هذه الأيام السوداء!
إن الانحراف بالحب إلى ما لا يحقق الترقي الإنساني هو قمة التردي والسقوط!
هذه حقيقة ساطعة.
انتبهوا إلى هذه الحقيقة؛ لأجل نجاة الحياة، ونقاء الوجود، واستمرار الإنسانية، وخيريتها، هبوا إلى مقامات حب الآخرة، هذا صوت الآية الجليل!